مكانة الأباضية
في
الحضارة الإسلامية

الحلقة الثانية

اعداد
د. محمد صالح ناصر

الطبعة الاولى
١٤١٣هـ-١٩٩٢م

مكانة الاباضية
في
الحضارة الإسلامية

الحلقة الثانية

اعداد
د. محمد صالح ناصر

الطبعة الاولى
١٤١٣هـ-١٩٩٢م

مكانة الاباضية بين المذاهب الاسلامية

الآن وقد عرف القارىء الكريم الأسس التي بُني عليها المذهب الإباضي والاتجاهات التي ينتهجها والسلوك الذي يسير به يستطيع أن يقرر له حيزاً ضيقاً بين المذاهب الإسلامية . وأن يبعد عن نفسه تلك الصورة القائمة البشعة الشرسة التي تعاون على وضعها ظروف مختلفة من السياسة والتعصب وسوء الفهم .

مكانة الاباضية
بين
المذاهب الاسلامية[1]

بقلم : الشيخ علي يحيى معمر

سبق إلى أذهان كثير من الناس ـ بسبب أخطاء المؤرخين وكتاب المقالات ـ أن الإباضية فرقة من الخوارج وأنها ـ في عقائدها وآرائها ـ معتدلة بالقياس إلى الخوارج ومتطرفة بالقياس إلى أهل السنة .

وهذا مفهوم خاطىء ويجب أن يختفي فالإباضية ليسوا من الخوارج وإنما نشأوا عندما غدا الخوارج لمجابهة الخوارج وليسوا متطرفين بالنسبة إلى أهل السنة لا في السياسة ولا في العقائد ولا في الفقه وإنما يتفقون مع كل مذهب في مواضيع اعتداله .

وإن شئت مزيدا من التفصيل فاقرأ المقال الآتي :

نشأ المذهب الإباضي في فترة متقدمة بالنسبة إلى غيره من المذاهب الإسلامية ، هذا من حيث التاريخ ، أما الطريقة التي نشأ بها فهي لا تختلف عن غيرها من طرق نشأة بقية المذاهب ، إمام من أئمة المسلمين (وبالنسبة إلى الإباضية هو أحد كبار التابعين) يجتمع عليه عدد من طلاب

---

(1) الشيخ علي يحي معمر (ليبي (ت ـ 1980) صاحب المؤلفات التاريخية القيمة .

العلم . يلتزمون مجلسه ويأخذون عنه ثم يتفرقون بعد التحصيل في البلاد ، فيقف المتفقون منهم موقف أستاذه ، يتخذ نفس أسلوبه في السلوك والتدريس وينقل عنه لطلابه روايته ورأيه . ثم تنتقل العملية مع الأجيال وكل جيل ينقل عن الجيل السابق ما حفظه من آثار لآراء . تكتسب مع مضي الزمن شيئا من الاحترام يبلغ درجة التقديس أحيانا وتزداد هذه الصورة وتكبر مع الأيام .

هذه الصورة هي الصورة التقريبية التي نشأت عنها جميع المذاهب وإن اختلفت أزمنة الأئمة فمنهم من كان من الرعيل الأول من التابعين ومنهم من كان من تابعي التابعين ومنهم من كان في الدرجة الثالثة ومنهم من كان أبعد من ذلك بكثير كابن تيمية وكمحمد بن عبد الوهاب .

وبالنسبة إلى الإباضية فقد كان يحضر مجلس جابر بن زيد عدد من الطلاب الأذكياء منهم من يأخذ عنه وعن غيره ، كقتادة ، وأيوب ، وابن دينار ، وحيان الأعرج ، وأبي المنذر تميم بن حويص ، ومنهم من يأخذ عنه أكثر مما يأخذ عن غيره أو يكاد يختص بمجلسه ، كأبي عبيدة مسلم ، وضمام ، وأبي نوح الدهان ، والربيع بن حبيب ، وعبد الله بن إباض ومن هؤلاء الطلاب من كان يشتغل أثناء التحصيل وبعد التحصيل بالشؤون العامة ومنهم من اشتغل بالمسائل السياسية ومطارحاتها مع حكام الدولة الأموية في ميدان الكلمة دون استعمال السيف كعبد الله بن إباض[1] ومنهم

---

(1) كثير من المؤرخين وأصحاب المقالات يحسبون أن عبد الله خرج في أيام مروان بن محمد وأنه قتل في معركة ثبالة وهو خطأ تاريخي لأن عبد الله بن إباض الذي تنسب إليه الإباضية توفي في أواخر أيام عبد الملك وهو أكبر من جابر في السن وتابع له في المذهب والرأي ، ونسب المذهب إليه لأنه كان أكثر ظهورا في الميدان السياسي عند الدولة الأموية والتسمية منها .

من جلس للتدريس وأخذ مكان الإمام كأبي عبيدة وأبي نوح صالح الدهان وقام بنفس الدور وتخصص فيه ولما كانت هذه الحركة في عنفوان بناء الدولة الأموية وكانت سيوفها مسلطة على جميع الأئمة والعلماء خوفا منهم أن يجهروا بالإنكار عليها ، أو يدعوا الناس إلى الخروج عنها ، وكان جابر ابن زيد في مجالسه كزملائه الحسن وسعيد وغيرهم من كبار التابعين غير راضين عن الوضع وكثيرا ما يتناولونه بالنقد ، فكانت السلطات بدورها تراقبهم هم وتلاميذهم في يقظة وحذر وشدة . وتضيق عليهم الخناق ، وتحاول بكل وسيلة أن لا تسمح لنقدهم أن يتسرب إلى الناس وقد احتاطت لذلك من بداية الأمر فنسبتهم إلى التطرف واعتبرتهم ضمن الخوارج ، وكانت تهمة الخارجية ـ تشبه ما يسمى اليوم بالعمالة أو بالخيانة ـ عملية ليس لها ضوابط توجه بسهولة إلى كل من يراد التخلص منه أو الانتقام منه أو إيقاف نشاطه وتستغل عند اللزوم . ولذلك فلم يسلم منها الإمام جابر بن زيد كما لم يسلم منها الإمام مالك بن أنس[2] وكان الغرض من إشاعة هذه التهمة هو إشعارهم بأنهم

---

(2) جاء في الكامل لأبي العباس المبرد الجزء الثاني صفحة 159 ما يلي :

« يروى أن المنذر بن الجارود كان يرى رأي الخوارج وكان يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج بن يوسف يراه ، وكان صالح بن عبد الرحمن صاحب ديوان العراق يراه ، وكان عدد من الفقهاء ينسبون إليه ، منهم عكرمة مولى ابن عباس . وكان يقال ذلك في مالك بن أنس المديني ، كان يذكر عثمان وعليا وطلحة والزبير فيقول : والله ما اقتتلوا إلا على الثريد الأعفر ، فأما أبو سعيد الحسن البصري فإنه كان ينكر الحكومة ولا يرى رأيهم » .

وجاء في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد الجزء الخامس صفحة 76 ما يلي :

تحت المراقبـــة وأن تبرير أي مـوقف عنف يتخـــذ معهم من السلطات هو موجود في أذهان النـاس ولا يحتـاج إلا إلى تـأكيـد عملي من أجهزة الحكم .

فإذا تركنا هذا الجانب خارجا عن البحث واتجهنـا إلى الجـانب الفكري والسـلوكي فإننا سوف نجد المذهب الإباضي مذهبا إسلاميـا نشـأ كما نشـأ غيره من المذاهب الإسلامية بأئمته وعلمائه ، طبقات يأخـذ بعضهـا عن بعض إلى اليوم وقد بدأ جهوده العلمية في خدمة الثقافة بالاتجاه الذي أختاره قبل أن تبدأ أكثر المذاهب الأخرى ودونت له مؤلفـات في الحـديث والفقـه قبل أن تبدأ بعض المذاهب التي وجـدت لهـا مكانـا فسيحـا في الـدراسـة على المنهج الذي سارت عليه . وفي النقـاط الآتيـة أستطيع أن أضع جملـة من الخطوط العريضة التي يمكن أن يحـدد القـارىء الكريم بعـد دراستهـا والتحقق منهـا موضع الإباضية بين المذاهب الإسلامية .

1 ـ يرى الإبـاضيـة أن المصـدر الأسـاسي للـدين الإسلامي في عقـائـده وعباداته ومعاملاته وأخلاقه إنما هو القرآن الكريم وأن من أنكر شيئا منه : سورة أو آية أو حرفا فهو مشرك أو مرتد .

« ومن المشهورين برأي الخوارج الـذين تم بهم صـدق قـول أمير المـؤمنين عليـه السـلام : إنهم قطف في أصلاب الرجال وقرارات النسـاء ، عكرمـة مولى ابن عبـاس ، ومالك بن أنس الأصبحي الفقيه ، يروى عنه أنه كان يذكر عليا عليـه السـلام وعثمان وطلحة والزبير فيقول والله ما اقتتلوا إلا على الثريد الأعفر » .

ويقول في نفس المصدر بعد أسطر ما يلي :

« وممن ينسب إلى هـذا الرأى من السلف جـابر بن يـزيـد ، وعمرو بن دينـار ومجاهد » راجع إن شئت كتاب العقـد الفريـد لابن عبـد ربـه وكتـاب الأغـاني لأبي الفرج وغيرهما .

2 ـ ويرى أن المصدر الثاني للدين الاسلامي إنما هو السنة الصحيحة وهي على درجات منها المتواتر قطعي الدلالة يفيد العلم ويوجب العمل ومنكره كالمنكر للقرآن والمشهور من السنة أو المستفيض هو أضعف من المتواتر وأقوى من الآحادي وهو يوجب العمل واختلفوا هل حجته قطعية أم ظنية على قولين . والآحادي من السنة ظني الدلالة يوجب العمل والمرسل وإن كان أضعف من الآحادي إلا أنه يوجب العمل إذا كان لصحابي أو تابعي .

3 ـ ويرون أن المصدر الثالث هو الإجماع إذا استوفى الشروط المعروفة عنه الأصوليين والخروج منه فسق وحجيته قطعية ويرون أنه وقع إجماع بقسميه القولي والسكوتي وأنه من الممكن أن يقع في كل عصر وينقل إلى الناس بالشروط المعتبرة .

4 ـ ويرون أن المصدر الرابع هو القياس على الأسس المعروفة في كتب الأصول .

5 ـ ويرون أن المصدر الخامس هو الاستدلال بأنواعه المختلفة ويهتمون بالمصالح المرسلة اهتماما خاصا وربما يكون الإباضية ـ بالنسبة إلى اعتبار المصالح المرسلة ـ في الدرجة الثانية بعد المالكية .

ب ـ العقائد :

ويرى الإباضية أن الإنسان لا يكون مسلما إلا إذا أقر بالجمل الثلاث فشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن ما جاء به حق من عند الله وما تدل عليه هذه الجمل الثلاث من التفصيلات .

1 ـ وأساس عقيدتهم في الخالق تبارك وتعالى هو التنزيه المطلق فلا يشبه شيئا من الخلق ولا يشبهه شيء من الخلق وما جاء في القرآن الكريم أو في السنة النبوية المطهرة مما يوهم التشبيه فإنه يؤول بما يفيد المعنى ولا

يؤدي إلى التشبيه ويبتعدون كل البعد عن وصفه تعالى بما يوهم التشبيه ويثبتون له الأسماء الحسنى والصفات العليا كما أثبتها لنفسه .

2 ـ القدر :

يقولون إن الإيمان لا يتم حتى يؤمن المسلم بالقدر خيره وشره أنه من الله تبارك وتعالى وأن أفعال الإنسان خلق من الله تعالى واكتساب من الإنسان ويبتعدون عن رأي المجبرة كما يبتعدون عن رأي من يقول بأن الإنسان يخلق أفعاله .

3 ـ مرتكب الكبيرة :

يرون في مرتكب الكبيرة رأي الحسن البصري وجابر بن زيد وغيرهما لا يحكمون عليه بالشرك كما يقال عن الخوارج وإنما يقولون هو منافق ولا يمكن لمرتكب الكبيرة في حال معصيته وإصراره عليها أن يدخل الجنة إذا لم يتب ولعل أعنف الخصومات إنما قامت بين الإباضية والخوارج في هذا الموضوع منذ أثارها نافع بن الأزرق حسبما تقوله مصادر التاريخ .

ج ـ الفقه :

مكان الإباضية في هذا الباب ربما كان في الشريحة التي تقع بين أهل الظاهر والحنابلة من جهة والحنفية من جهة أخرى ورغم أن المذهب الإباضي نشأ في العراق إلا أنه لم يذهب مع الرازي إلى المذهب الذي بلغه الحنفية والمعتزلة ويكفي لإيضاح هذه النقطة أن يعرف القارىء الكريم أن الفقه الإباضي يعتمد من حيث الأدلة بعد القرآن الكريم في مجال السنة على المتواتر والمشهور أو المستفيض وعلى الأحادي وعلى مرسل الصحابة والتابعين ، وإذا تعارض الحديث والقياس رجح جانب الحديث ولو كان أحاديا أو مرسلا للطبقة السابقة ولا يرد الحديث الأحادي إلا إذا صادمه دليل قطعي ، ويقولون بالقياس والاستصحاب والمصلحة المرسلة على

التفاصيل والمناقشات الطويلة المعروفة في كتب أصول الفقه .

د ـ السلوك :

يتمسك الإباضية بجميع أنواع السلوك والأخلاق التي أمر بها الإسلام ، ومن مظاهر ذلك :

1 ـ يرون أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب في الحدود التي بينها الحديث الشريف .

2 ـ يرون أن محبة المسلمين في الله من أجل طاعتهم وبغض العصاة والكافرين في الله من أجل معصيتهم واجب على كل مسلم ، وأن هذه المحبة يجب أن تتوجه إلى جميع أولياء الله في جميع الأزمنة والأماكن على الإجمال ، وأن يقصد إلى من ثبتت ولايتهم لله بالاسم أو بالصفة ممن مضى ، وأن يتعامل مع الحاضرين ممن يعرفهم على هذا الأساس ، كما يجب أن يبرأ من الكافرين والعصاة في جميع الأزمنة والأمكنة هكذا على الإجمال وأن يقصد ببراءته من عرف بالاسم أو بالصفة وأن يتعامل مع الحاضرين ممن يعرفهم على هذا الأساس ، أما من عرفهم في زمانه ولم يعرف أحوالهم من الطاعة والمعصية فيجب عليه أن يقف فيهم لا يتولاهم ولا يبرأ منهم حتى يعرفهم بيقين لأن الولاية والبراءة عند الإباضية لا تلزم إلا باليقين كالمعرفة الشخصية أو شهادة العدلين ولا تبطل إلا بيقين .

3 ـ يرون أن جميع المسلمين يتساوون في الحقوق والواجبات ما عدا شيئا واحدا وهو الدعاء بخير الجنة وما يتعلق به فإنه حق خاص للمتولي إي للمسلم المَوَفّي بدينه الذي يستحق الولاية بسبب طاعته أما الدعاء بخير الدنيا ، وكذلك بما يحول الإنسان من أهل الدنيا إلى أهل الآخرة كقولك لإنسان تعرف أنه منحرف عن الإستقامة رزقك الله توبة نصوحا ، أو هداك الله أو رزقك الصحة والعافية أو رقاك في مراتب الوظيفة فإن هذا

كله حق جائز لكل أحد من المسلمين تقاة وعصاة .

4 ـ عندما تكون الأجهزة الحاكمة جائرة غير متمسكة بأحكام الشريعة يجوز للمسلمين البقاء تحت حكمها والخروج عنها وإذا بقوا تحت حكمها فإنه تجب عليهم الطاعة في غير معصية الله وإذا كانت تنفذ أحكامها على مقتضى مذهب مخالف لهم ، فإن أحكامها نافذة عليهم بما يترتب عليها من حقوق وواجبات ، ما دامت تلك الأحكام مطابقة لمذهب إسلامي . وأقرب مثال لذلك أن الإباضية يغلبون جانب الأب في الحضانة على جانب الأم فيرون أن الجدة للأب أولى بالحضانة من الجدة للأم وأكثر المذاهب الأخرى ترى العكس فإن كانت الدولة تحكم وفق مذهب يرجح جانب الأم فإن على أتباع المذهب الإباضي الخاضعين لتلك الدولة أن ينفذوا هذا الحكم بما يترتب عليه ولا حرج عليهم وكذلك يرى الإباضية أن الجد يمنع الإخوة من الميراث وبعض المذاهب الأخرى ترى أن يقتسموا معه فإن كانت الدولة تحكم على مذهب الرأي الأخير فإن على الإباضية أن يقبلوا بهذا الحكم وأن ينفذوه ولا حرج عليهم ..

أحسب أن هذه الخطوط العريضة كافية لمعرفة مكان الإباضية بين المذاهب الإسلامية ، فهو على كل حال لم يتطرف في موضوع الأدلة الشرعية فيعتبر كل أثر مهما ضعف حجة ولم يتطرف إلى الجانب الآخر فيرد السنة بالقياس .

وهو لم يتطرف في موضوع الإجماع فيعتبر الاتفاق الضيق في حدود المذهب أو حدود المكان ـ كوطن معين أو الحرمين أو المدينة ـ حجة ولم يتطرف إلى الجانب الثاني فينفي حجية الإجماع أو إمكانه ، أو إثباته أو وقوعه وسلم بوقوعه بكلا قسميه القولي والسكوتي في عهد الصحابة مع احتمال وقوعه في كل عصر إلى قيام الساعة . ورأى أن الإجماع المحدود في

نطاق مذهب أو بلد هو حجة ظنية على المجمعين وليس له قوة الإجماع وينبغي أن يحمل اسم اتفاق لا اسم الإجماع .

وهو لم يتطرف في موضوع القياس فيمنع اعتباره دليلا شرعيا إذا استوفى شروطه ولم يتطرف إلى الجانب الثاني فيرد به النص .

وقبل الاستدلال بالاستصحاب والمصالح المرسلة ، ولم يتطرف في موضوع العقيدة إلى جانب فيقع في التشبيه ولا إلى الجانب الثاني فيقع في نفي ما أثبت الله تبارك وتعالى لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ .

ولم يتطرف في موضوع القدر فيميل إلى جانب السلبية حتى يقول أن الإنسان مجبر على أعماله وهو كاليت بين يدي الغاسل إو يميل إلى جانب الإيجاب حتى يزعم أن الإنسان يخلق أفعاله ولم يتطرف في موضوع مرتكب الكبيرة فيوافق من يحكم عليه بالشرك ولم يقف موقف المرجئة الذين يفتحون أبواب الجنة للعصاة كأنها فنادق يملكون هم مفاتحه على مبدإ « لا تضر مع الإيمان معصية » .

الآن وقد عرف القاريء الكريم الأسس التي بني عليها المذهب الإباضي والاتجاهات التي ينتهجها والسلوك الذي يسير به يستطيع أن يقرر له حيزا ضيقا بين المذاهب الإسلامية . وأن يبعد عن نفسه تلك الصورة القاتمة البشعة الشرسة التي تعاون على وضعها ظروف مختلفة من السياسة والتعصب وسوء الفهم .

مفاهيم يجب أن تختفي

سبق إلى أذهان الناس ـ بسبب ما أثاره وادعاه المتعصبون من كل مذهب ـ أن الخلاف بين المذاهب الإسلامية خلاف جذري لا يمكن اللقاء فيه ، وهو مفهوم خاطىء لأن الخلاف بين المذاهب الإسلامية خلاف سطحي لفظي يمكن اللقاء فيه بيسير

من الجهد لو ترك المتعمقون إثارة الخلاف وتجنب الإلزامات .

الجدل في اللوازم[3] وليس في أصول العقائد

نستطيع أن نقول أن الخلاف بين جميع المذاهب الإسلامية لا يخرج عن الدوائر الثلاث الكبرى الآتية :

1 ـ العقائد المتعلقة بالخالق سبحانه وأسمائه وصفاته وأفعاله .

2 ـ نظام الحكم وشروط رئيس الدولة .

3 ـ الأحكام المتعلقة بالمسائل الفقهية أصولا وفروعا .

ولقد اتفق المسلمون عموما على أصول هذه الدوائر عموما وإن اختلفوا في التفصيلات والتفريعات ، فنحن لو استطعنا أن نجري مقارنة بين عدد المسلمين الذين يثيرون الجدل ويحدثون الخلاف ويدعون إلى تتبع فرقة دون فرقة أو مذهب دون مذهب ويحكمون على هذا أو ذاك بالضلال أو بالكفر ويأمرونهم باتباع مذهب أو الاستمساك به دون غيره ـ وبين عدد من يتبع تلك المذاهب في بساطة ويستمسك بها في تعلق مع عدم تعمق ، ولا استطاعة لإقامة حجج وبراهين ، لوجدنا أن نسبة ضئيلة جدا قد لا تصل الواحد في الألف ، هي التي تفهم بعض تلك المشاكل وهي التي تتزعم إثارة الخلاف والشغب ، وتحاول أن تكتل المسلمين إلى كتل في مذاهب معينة ، وأن هذه النسبة فقط أو بعضها في

---

(3) استعملت كلمة اللوازم في هذا الفصل للدلالة على المحذورات التي ينسبها كل واحد من المتجادلين إلى الآخر من قولهم إذا قلت كذا يلزمك كذا كقول الأشعري للمعتزلي في موضوع الصفات إذا قلت أنها ذاتية يلزمك التعطيل وقول المعتزلي للأشعري إذا قلت إنها غيره يلزمك التعدد .

الحقيقة ، هي التي تعرف مواضيع الخلاف والجدل أما باقي أتباع المذاهب الذين يساقون في مجموعات كبرى وراء اسم إمام من الإئمة فيتحمسون له في عصبية ويتمسكون بمذهبه في حرص وتشدد ، فهم في الغالب لا يعرفون ولا يفهمون شيئا من تلك المشاكل المعقدة من علم الكلام أو أصول الفقه أو قواعد السياسة .

وإنما يعرفون بعض المسائل الفقهية العلمية في العبادات ، أو لو أردنا أن نعرض نموذجا لذلك في الجمهورية العربية الليبية بين أتباع المذهبين الإباضي والمالكي لوجدنا أن مظهر الخلاف لا يزيد عند الأغلبية الغالبة من السكان عن قراءة البسملة في الفاتحة ، أو رفع الأيدي عند التكبير ، وتحريك السبابة عند التشهد ، والإصباح بالجنابة في رمضان وما أشبهها وأن جميع المصادمات والخصومات التي تقع بين العوام من أتباع المذهبين لا تخرج عن مستوى هذه المسائل .

فإذا انتقلت من مستوى العوام إلى مستوى المثقفين دينيا أو المتفقهين ارتفع مستوى المسائل قليلا فوجدت النقاش ربما يدور على مستوى ميراث الإخوة مع الجد وحق الحضانة ونفقة الأقارب وبعض مسائل التعامل وأحكام الصلاة في السفر ووجوب التتابع في قضاء رمضان وما في هذا المستوى من الفقه العملي .

أما مسائل علم الكلام وقواعد التشريع وأسس بناء الحكم الإسلامي ، هذه الدوائر التي كانت محور تكوُّن المذاهب في الحقيقة فلا يعرفون عنها شيئا أو يعرفون عنها أشياء سطحية تلقفوها بطريق التلقين . فالعوام وأشباه العوام جميعا يؤمنون بأن الله تبارك وتعالى حي قدير مريد سميع عليم بصير متكلم خالق مصور إلى آخر الصفات التي وصف بها نفسه ، ولكنك لو سألتهم عن صفة ما ، هل هي صفة ذاتية أو صفة فعل ، أو

قلت لهم هل صفات الله تبارك وتعالى عينية أم غيرية ؟ ما فهموا منك ولأعرضوا عنك ، وربما ظنوا أنك تستهزيء بهم ومعنى هذا أن جمهرة المسلمين متفقون ـ واقعيا ـ في العقائد وكذلك في الدائرتين الأخيرتين ويبقى النظر إلى خواصهم ، وبقليل من التأمل يبدو لنا واضحا أنهم متفقون هم أيضا في أصول جميع تلك الدوائر وإنما يختلفون عند التفاصيل بسبب ما يلزمه كل واحد منهم للآخر ويرتبه على نقاشه أعني أن المذاهب الإسلامية جميعا متفقة في الأصول وأن الخلاف وقع من بعضهم في اللوازم أو بسبب اللوازم فقط ، وبيان ذلك فيما يلي :

إذا جئنا إلى مسائل علم الكلام لكانت هي أهم المحاور لتكوُّن المذاهب وتمزيق شمل المجتمع ، وتضليل وتفسيق جوانب كاملة من الأمة الإسلامية ، والتي أضاع فيها علماء أجلاء أوقاتا ثمينة في إعداد البراهين وما تستلزمه ، نجد الأمة الإسلامية بمذاهبها المختلفة متفقة على أصول العقائد وأن أولئك العلماء الأجلاء المتضاربين بالبراهين والإلزامات هم الآخرون متفقون على جميع الأصول وإن ظن الناس انهم مختلفون وانما اختلافهم فيما يلزمه بعضهم للآخرين أثناء النقاش أو عند إعداد السؤال والجواب حين يزعم أحدهم أن كلام الآخر يستلزم محذورا ويترتب عليه باطل ويجيب الثاني بنفس الأسلوب وإلى القارىء الكريم أمثلة من ذلك :

1 ـ المسلمون جميعا باختلاف مذاهبهم متفقون أن الله تبارك وتعالى متصف بجميع صفات الكمال ، منزه عن جميع صفات النقص لا يشبه شيئا من خلقه ولا يشبهه شيء من خلقه .

هذه عقيدة عامة يتفق عليها جميع المسلمين خواصهم وعوامهم فإذا

جاءوا إلى التفاصيل بدأت المصاولات العنيفة والجدل الحاد وإلزام الخصم ما يلزمه وما لا يلزمه حين يتحدثون عن أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله .

2 ـ المسلمون جميعا باختلاف مذاهبهم متفقون أن الله تبارك وتعالى عادل في ملكه لا يجور ولا يظلم الناس شيئا فإذا جاءوا إلى التفاصيل وناقشوا موضوع الثواب والعقاب والعمل والجزاء بدأت المصاولات العنيفة والجدل الحاد ومحاولة كل طرف أن يجعل براهين الطرف الثاني تستلزم محذورا .

3 ـ المسلمون كلهم باختلاف مذاهبهم متفقون أن الله تبارك وتعالى أعد الجنة لمن أطاعه وأعد النار لمن عصاه فإذا جاءوا إلى التفاصيل اشتد الخلاف وادعى كل واحد أن كلام خصمه يستلزم محذورا ويؤدي إلى باطل .

وهكذا ينفتح باب الخلاف ويترك الأصل المتفق عليه إلى فرعيات ومن الفرعيات إلى جزئيات للفرعيات حتى تطغى تلك الجزئيات على الأصل الهام للعقيدة وأصبحت لا تجد من حلبة الجدال أو حتى فيما ينسب إلى المذاهب إلا تلك اللوازم التي ينسبها كل طرف إلى الطرف الآخر كقولهم معطلة ، مشبهة وما إلى ذلك .

فإذا انتقلنا إلى الدائرة الثانية التي هي نظام الحكم وشروط رئاسة الدولة نجد أن المسلمين جميعا بمذاهبهم المختلفة أيضا متفقون على الأصول فيها فلو سألت أي عالم من أي مذهب كان ، عن الشروط التي يجب توافرها فين يتولى حكم المسلمين لأجابك بشروط تتفق أو تتقارب مما يقوله لك أي عالم من مذهب آخر ، فهو في حالات الكمال يجب أن يكون[4] عالما مجتهدا ذكيا شجاعا نزيها عادلا حريصا على مصلحة المسلمين

---

(4) يقتصر بعضهم على العدالة الشورى ويضيف إليها بعضهم البيعة ويضيف =

تقيا ورعا إلى آخر الشروط المعروفة المحددة في كتب الفقه . هذه الصورة لمن يتولى الحكم على المسلمين أوما يقارب منها ما يتفق عليه جميع المسلمين من جميع المذاهب تجدها عند الشيعة وتجدها عند الخوارج وتجدها عند المعتزلة وتجدها عند الأشاعرة وتجدها عند الإباضية وتجدها عند الماتريدية وتجدها عند الظاهرية وغيرهم إلا أفرادا شواذا من بعض المذاهب فارقوا مذاهبهم . وهذا هو القدر المشترك بين جميع المسلمين بعد هذا الاتفاق على هذا الأصل يأتي الاختلاف عند التفصيل وذلك عندما جاءت الاتجاهات السياسية فأثارت عدة نقط جانبية تمسك بها بعض الناس ليستغلوها فاستغلتهم منها : قضية اشتراط آل البيت ، أو فرع من فروع آل البيت ، ومنها اشتراط القرشية ، ومنها اشتراط العروبة ، ومنها قضية الفاضل والأفضل والعالم والأعلم ، ومنها جواز الخروج عليه إذا جار وعدم جوازه ، ومنها كونه معصوما أو غير معصوم ، ومنها إذا لم يكن عادلا هل تجب طاعته أو لا تجب ، ومنها طريقة اختياره وتنصيبه ، ومنها الحكم في الواثب العادل والمختار الجائر إلى غير ذلك وهذه الأبحاث كلها وليدة اتجاهات سياسية أثرت على المسلمين فكان منهم شيعة وعثمانية ثم خوارج ومعتزلة ثم إباضية وأشاعرة الخ .

وتحت هذا الخلاف ومع شدة تعصب كل لما يرى أو يريده لم يستطع أي مذهب من هذه المذاهب أن يحقق الشروط في الحاكم الذي يختاره في تطبيق عملي مع أن كل مذهب من هذه المذاهب تمكن من الوصول إلى الحكم وتكوين دولة على أساس مذهبي ، فقد بايعت بعض فرق الخوارج

= إليها بعضهم الطاعة ويضيف إليها بعضهم القرشية ويكتفي بعضهم بالوصية لأن الوصي لا بد أن تتم فيه جميع الشروط لأنه معصوم .

ـ كالأزارقة والصفرية ـ أئمة منهم فاستبد ذلك البعض حتى حكموا عليه بالكفر وعزلوه وقتلوه ، وبايع الشيعة أئمة فخرجوا عن الدين حتى ادعى بعضهم الألوهية . وانضوى العثمانيون تحت الحكم الأموي فجردتهم الدولة الأموية سيوفا تضرب بها رقاب المسلمين وتجاسر بعض أولئك الحكام حتى ضربوا الكعبة المشرفة ، وحتى استباح بعضهم حرمة المدينة المنورة ، ووصل المعتزلة إلى الحكم في ولاية مروان بن محمد وبعض ملوك الدولة العباسية فكان الحاكم آلة لتعذيب من يخالف المعتزلة ، وسخط الإباضية في عمان عن بعض الأئمة الذين انتخبوهم فعزلوهم ، **والمهم في الموضوع أن جميع الدول التي قامت بعد الخلافة الرشيدة والتي أوحت إلى مؤسسيها أو أتباعها بشروط زائدة عن الشروط الأساسية المتفق عليها كانت سببا للنكبة ، ذلك أن كل شرط جديد يولد رد فعل جديد ويترتب على ذلك الجدل والنقاش ، وتأتي بعده مرحلة إعداد البراهين واللوازم ثم تقاذف المحاذير فكان الساسة يتطاولون على المناصب وكان العلماء يتقاذفون التهم لمخالفة الدين ، أما بقية الناس فيزجون إما في جيوش لنصرة حاكم أو إسقاط حاكم ، وأما في مذاهب لاتباع إمام أو لعن إمام** ، والآن قد ألغت الحياة بعض تلك الاعتبارات التي أدخلتها السياسة على الموضوع واتضح للناس جميعا أن الصراع الذي وقع بسبب اشتراط الوصية أو الهاشمية أو القرشية أو العروبة أو اعتبار الإمام معصوما أو لا يجوز إسقاطه ولو كان منحرفا ، كل هذه الجوانب التي كان الخلاف بسببها بين فرق الأمة ثبت اليوم أنه صراع على تفصيلات لا تدخل في أصل الموضوع . وأثبتت التجربة أن أغلب أولئك الذين وصلوا إلى الحكم من أي جانب من الجوانب اعتمد على النظرة الجانبية في إثبات حكمه وامتداده ، وتخلى عن الأصول التي تتفق عليها جميع الأمة ،

ولذلك فهو ينظر إلى الأمة المسلمة على أساس أنها تتكون من قسمين : أنصار له في حكمه وخصوم له وهو بهذا الاعتبار يفتح ميادين الحياة وحقوقها على مصاريعها لأنصاره ويغلقها أو يضيقها ما أمكنه التضييق على خصومه .

فإذا انتقلنا من هذه الدائرة إلى الدائرة الثالثة وهي دائرة الأحكام المتعلقة بالمسائل الفقهية أصولا وفروعا نجد أن المسلمين جميعا بمذاهبهم المختلفة متفقون على الأصول فلو سألت أي عالم من أي مذهب عن مصادر التشريع لأجابك بسرعة هي : الكتاب والسنة . فإذا جئت إلى التفاصيل تثير الجدل والصخب وتوجيه الاتهامات وإلصاق اللوازم . والذي ينبغي أن ننتهي إليه بعد هذا العرض المجمل أن نعتبر جميع المذاهب الإسلامية على مستوى واحد في المعاملة بعد أن اتفقوا كما رأينا على الأصول ، وأن نبعد التحكم في إصدار الأحكام فليس من حقك أن تحمل الآخرين على أن ينظروا إلى فروع مسألة ما من الزاوية التي تنظر منها وإلا اعتبرتهم مبتدعة أو أصحاب أهواء وليس من حقك أن تفرض فهمك على الناس ثم تتحكم في إفهامهم فمن وافقك ضممته إليك ومن خالفك حكمت بفسقه أو كفره ، إن الله تبارك وتعالى هو إله للجميع والجميع يتساوون في عبوديتهم له ويتنافسون في التقرب إليه عبر يد الطاعة وامتثال الأوامر والحرص على العمل الصالح ، وليس درجات القرب منه تعالى مبنية على المذاهب وإنما هي مبنية على العمل الصالح من الأفراد - دون ارتباطهم بالمذاهب - وعلى صحة العقيدة .

وقد رأينا أن المسلمين متفقون على أصول العقيدة ، أما ما جاء بعد ذلك من الخلاف في فهم النصوص من الكتاب والسنة واستخراج الأحكام العملية منها فإن الله تبارك وتعالى هو الذي أراد ذلك رحمة بهذه الأمة

وتوسعة عليها ولو شاء لحدد كل شيء في نصوص لا تحتمل التأويل أو الخلاف .

ولعل علماء الأمة المسلمة المعاصرة بناء على النظرة المنصفة وتسوية في الحقوق بين جميع المسلمين ودفعا للاحتكار الديني أو العلمي بين مجموعات محدودة ، فهم يسقطون من حسابهم تلك الأحكام المتعصبة الجائرة التي كانت تصدر على مجموعات من الناس ، أو بعض العلماء الأجلاء بأنهم أصحاب أهواء أو مبتدعة أو فسقة أو يحكم عليهم بالكفر ، وأن ينظروا إلى عمل الرجل مجردا من المذاهب أو الفرقة أو الكتلة في عمله الفردي وسلوكه الشخصي ، بقطع النظر عن الجهة التي ينتمي إليها فليس مهما أن يكون معتزليا أو شيعيا أو سنيا أو إباضيا أو خارجيا ، وإنما المهم أن يقوم بالعمل الصالح حسب الأسس التي يعمل بها في الفرقة التي ينتمي إليها ويجب أن تعتبر جميع الفرق التي تتكون منها الأمة الإسلامية على مستوى واحد من الاعتبار . والأمة الإسلامية تتكون من جميع من ينتسب إلى الشيعة أو ينسب إليها ، وجميع من ينتسب إلى الخوارج أو ينسب إليها ، وجميع من ينتسب إلى المعتزلة أو ينسب إليها ، وجميع من ينسب إلى أهل السنة أو ينسب إليها ، وجميع من ينتسب إلى الإباضية أو ينسب إليها ، ولا يخرج منها إلا من أخل بأصل من أصول الإسلام فأنكر معلوما منه بالضرورة بطريقة التصريح لا بطريقة الإلزام . ولعل الإلتفات إلى الماضي في هذه الأحكام غير مهم لا سيما بالنسبة إلى تلك المذاهب التي انقرض أتباعها كالظاهرية والمعتزلة والخوارج ولكنه بالنسبة إلى المذاهب الإسلامية الموجودة أمر شديد الأهمية ، فما داموا كلهم متفقين على الأصول فلا ينبغي الالتفات إلى

اختلافاتهم في التفاصيل ، ويحق عليهم أن يلغوا فكرة اللوازم والاستلزام وأن يعلم كل فريق منهم أن من حق الآخر أن يستعمل عقله وفهمه وذكاءه ، وأن يتبع ما اتضح له بناء على جهده واجتهاده ، والأخوة الإسلامية اليوم رابطة بين الشيعة وأهل السنة والإباضية فينبغي أن يستمسكوا جميعا بهذه الرابطة التي شرعها الله تبارك وتعالى . وأن يتعاملوا على هذا الأساس أساس اشتراكهم في أصول العقائد والسياسة والشريعة وإن اختلفت بينهم التفاصيل ولا عبرة بالخلاف في التفاصيل ما داموا متفقين على الأصول وما كان يلزم به كل فريق غيره في الماضي لا يلزم أحدا في الواقع ونفس الأمر . وعند الله تبارك وتعالى يتلاقى الجميع .

الاباضية في الميدان

«. . . بعد نشوء هذه الفرقة وتركز قواعدها على يد صاحبها الأول . . ظهر منها أئمة برزوا في العلم والدين حتى بلغوا درجة الاجتهاد . فسنوا لحزبهم مبادىء وقواعد خاصة ، وشرعوا له فقهفا وأصولاً في العبادات والمعتقدات تحوَّلت به من مجرد فرقة دينية إلى مذهب سني . وذلك لأن اتباعه حافظوا على صفاء الرسالة المحمدية في أصول مذهبهم ، ولم ينحرفوا عن النهج القويم الذي كان عليه الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، وصحابته البررة في سلوكهم وأمور معاشهم ، ولا اقترف ولاتهم إثماً ، ولا مارسوا في قيادتهم ظلماً ، ولا أي لون من ألوان العسف التي لم يبرأ منها القليل من الولاة سواهم . . » .

الاباضية في الميدان(1)(2)

بقلم : عبد العزيز المجذوب (تونسي)

الإباضية إحدى فرق الخوارج كما هو معروف . تنسب إلى صاحبها عبد الله بن إباض ، وهي أكثر هذه الفرق اعتدالا ، وأخفها أحكاما على مخالفيها ، وَأَلْيَنُهَا مبادىء ، فلا غرابة أن نراها باقية إلى اليوم ولها أتباعها ومريدوها في المشرق والمغرب من العالم العربي الإسلامي ، ونرى سواها من فرق الخوارج قد بادت ، حيث إنها لم تضمن لنفسها أسباب البقاء .

وأبرز ما يتصف به الإباضيون تمسكهم الشديد بالدّين ، بأداء فروضه ، وتجنب نواهيه إلى حد الغلو ، وبغضهم المفرط لأصحاب الظلم والفساد . وبفضل هاتين الصّفتين استطاعوا أن يحققوا لأنفسهم عزا دينيا ومجدا سياسيا ، خلد ذكرهما التاريخ . وسنحاول الكشف عن ذلك قاصرين الحديث على الدّور الذي لعبته هذه الفرقة في بلاد المغرب عموما وبإفريقية على وجه أخص .

---

(1)الاستاذ عبدالعزيز المجذوب (تونسي)أستاذ جامعي من خريجي كلية الشريعة وأصول الدين بتونس .

(2) نقلا عن كتاب : المذهب الاباضي بإفريقيا . ط تونس . 1975 .

بعد نشوء هذه الفرقة وتركز قواعدها على يد صاحبها الأوّل في مطلع القرن الثّاني ظهر منها أئمّة أفذاذ برزوا في العلم والدّين حتّى بلغوا دَرَجَة الإجتهاد ، فَسَنّوا لحزبهم مبادىء وقواعد خاصة ، وَشَرّعُوا لَهُ فقها وأصولا في العبادات والمعتقدات تحوّلت به من حزب سياسي ومن مجرد فرقة دينية إلى مذهب سني . وذلك لأن أتباعه حافظوا على صفاء الرّسالة المحمّدية في أصول مذهبهم ، ولم ينحرفوا عن النهج القويم الّذي كان عليه رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - وصحابته البَرَرَةُ في سلوكهم وأمور معاشهم ، ولا اقترف وُلاَتُهم إثما ، ولا مارسوا في قيادتِهِمْ ظلما ، ولا أيّ لون من ألوان العسف التّي لم يبرأ منها إلاّ القليلَ من الولاة سواهم .

بل إنّ الظلم في حقهم كان مستحيلا ، لا لكونهم معصومين بل لأنّ رجل الدّين عندهم ورجل السيّاسة واحد ، والقائم بأمر النّاس فيهم هو الإمام نفسه . وتلك هي قاعدة الإسلام في الحكم ، التّي سار عليها الخلفاء الرّاشدون ، وعليها حافظوا ، ودونها نافحوا .

فمن الطبيعيّ أن ينتشر مذهبُ هذا شأنه ، وأن يُقبل على اتّباعه أناسٌ ببلاد المغرب لِيَجِدُوا في أكْنَافه الأمن والكَرامة ، وهم مَنْ سَئِمُوا حياةَ الاضطراب والظلم على أيدي الكثير من عمّال بني أميّة وبني العبّاس .

☆ ☆ ☆

كان ظهورهم بإفريقية أوائلَ القرن الثاني في عهد هشام بن عبد الملك[2] الّذي جدّد عهدَ أبيه وأسلافه الأوّلين بالتزامه سياسة الشدّة

---

(2) مدة خلافة هشام بن عبدالملك : 105 - 724/125 - 743 .

في مطاردة الخوارج والشيعة وملاحقتهم بالتّقتيل والإبادة .

ولعلّ أوّلَ دَاعية إباضيّ قَدمَ هذه البلادَ فَارّا من قبضة مُلاَحقيه هو سَلَمَةُ بن سعد ، الّذي عرف كَيف يتنقلُ بالبلاد ، وأيّ الشعاب يسلك حتّى يأمن ظلم الظّالمين ، ويضمن لِعَمَله التّوفيق ولرسالته الانتشار ، فاختار الطرق الجَبَليّة البعيدة عن الصحراء القَاحلة وأهوالها ، وعن المناطق السّاحلية الخَاضعة لسُلطة الولاة . وبجبال نفوسة ودَمَّر ونفزاوة وما والاها من المرتفعات والجبال ، وكلها مَناطقُ آهلة بالسكّان ، كثيرة العمران[3] ... أمكن له أن يستقرّ ويقوم في صفوف البربر بالدّعوة ، موضّحا للأذهان الصّورة الصّحيحة للإسلام في الاعتقاد وأتباعهم في ذلك الوقت ، فَالتَفَ من حوله النّاس مُسْتَجيبين لدعوته ، وَرَاح يَتَنَقل من مكان إلى آخر . ومَا ارتحل منْ موضع إلاّ خلّف فيه أتباعا ... تكاثروا مَعَ مرور الأيّام والأعوام حَتّى صارَ لهم شأنٌ ، وأضحوا يُمَثلُون قوّة يُقْرَأ لَهَا ألفُ حِسَاب .

ومن إفريقيّة انطلق شابان إباضيان ـ بعد أن تلقيا المباديء الأولى للدّين والمذهب على يَد سلمة بن سعد ـ انطلقا إلى العراق ضمن بعثة تضمّ عددا من الإباضيين سواهما ، فقضيا سنين في طلب العلم على يد إمام المذهب في ذلك الوقت أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة . فالطالب الأوّل من القيروان ، وهو عبد الرّحمان بن رستم ، أمّا الثّاني فهو أبو داود من الجنوب . ولَمّا أتمّا الطّلب ، واكتمل عندهما

(3) يقول التيجاني في رحلته : 185 واصفا جبال الاطلس التي تمتد من برقة الى المحيط الأطلسي : «وهو من بدئه الى منتهاه مخصوص بسكني البربر وبه كل طريفة من الثمار وغرائب الاشجار والماء ينبع منه في مواضع معروفة ....»

العلم ، واطمأنّ لنباهتها إمامها أوْصَاهُمَا خيرا ، ثمّ سَرّحَهُمَا عائدين إلى موطنها . فكان لأبي دَاود شأنٌ في عالم الإصلاح ، إذْ تَفَرّغ للجهاد الدّيني والعلمي ، فأنشأ بجهة نَفْزَاوةَ وسواها من جهات الجنوب جيلا إسلاميا فاضلا في خُلقه ودينه ، كان البذرةَ الصّالحة لما تبعته من أجيال تمسكت بالسنة والفضيلة ، وقاومت البدَعَ والرذيلَةَ .

أمّا عبد الرّحمان بن رستم فقد نَبغَ في العِلْم والإجتهاد درجة بهرت أبا عُبَيْدةَ أستاذَهُ حتّى أجازَ لَهُ حقّ الفتوى بما سمع منه وما لم يسمع . وبذلك كان قد اختاره لإمامة المَذْهَب ورَيثا وَحَافِظا .

لكن شاءت الأقدار والأحداث السيّاسية أن يَجْمَعَ عبد الرّحمان ابن رستم إلى جانب ذلك مُهِمّةَ الاضطلاع بأعْباء الحكم والسياسة ، ذلك أنّ ظُلْم الولاة قد اشتدّ بإفريقية بعد ابن أبي المهاجر المُوَلّى من قِبَل الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وأكْثَرَ رجالُهم من السّلب والنّهب ، واستباحوا الحُرَمات ، حتّى ثارت القبائلُ البربريّة في وجوههم ثوْرَات عديدة ، اشتدّ ساعدها بنزوح الخوارج من الصفرية إليهم ، فانقلبت إلى حروب حقيقيّة طَاحنة ، خَاضها العُمّالُ أنفسهم ، وقادوا جيوشها ضدّ الخوارج بأقصى المغرب وأوسطه دون جدوى ، إذ كانت الهزائم تلاحقهم حيثما هَجَمُوا وأينما حلوا .

وقد كان المسؤولَ الأوّل عَنْ هذه الفتن ، ومُوقِدَ نِيرَانِهَا العامل عُبيدُ الله بن الحبحاب المُولى من قبل هشام بن عبد المَلك . يقول ابن عذاري : «وكان السبب في ثورة البربر وقيام ميسرة (المَدغري) أنّها أنكرت على عامل ابن الحبحاب سُوءَ سيرته كما ذكرنا ، وكان الخلفاء بالمشرق يَسْتَحبونَ طرائفَ المَغْرب ، ويبْعَثُون فيها إلى عامل

إفريقية ، فَيَبْعثون لهم البَرْبريّات السنيات ، فلمّا أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب مَناهُمْ بالكثير ، وتكلّف لَهم أو كَلَّفوه أكثرَ ممّا كان فاضطُرَّ إلى التعسّف وسوء السيرة ...»[4] . وإذا أضفنا إلى هذا ما قام به عامِلُه بطنجة من تَخْميسه للبربر ، زَاعِما أنّهم فَيء للمسلمين[5] ، عَرَفنا السَّبَبَ الّذي مِنْ أجله ثار البَربرُ يَقْدُمُهُمالصفري مَيسرةُ المَدْغري[6] .

وتتابعت الحروب بين البربر وولاة القيروان عنيفة شديدة ، أزهقت فيها أرواحُ مئات الآلاف من المسلمين ، وانتُهكت فيها الحُرُماتُ ، واسْتُبيحت النساء من الطرفين المتقابلين حتّى كأن القوم ما عرفوا الإسلام ، ولا طرقت أسماعَهم مبادىء الإخاء والتّناصح ، والأمر بالتّناصُر والتّسامح في كتاب الله وسنّة نبيه الهَاديَة .

☆ ☆ ☆

وتأتي السنة 749/132 فَتَنْهَار الدولة الأموية لتقوم على أنقاضها دولة بني العبّاس ، ولئن تغيّرت أوضاع الحكم والسياسة بالقيروان ، فأصبح الولاة يَفدون إلى إفريقية من العراق بعد أن كانوا يُعَيَّنون من قبل السلطة بالشام فإنّ الأغراض السيّاسية بقيت على ماهي عليه والنّوايا نحو مسلمي المغرب باتت على حالها لم يتغيّر منها شيء . ونتيجة لذلك تواصلت المقاومة البربرية ، وتتابعت الثّورات أشد ضراوة . وما كان لها أن تتوقّف ، وقد أضْحَتْ حُروبا

(4) ابن عذارى ، البيان المغرب 1 : 52 .

(5) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(6) كانت ثورته سنة : 740/122 .

لاَ ضـدَ الظلم المسلّـط وكفى بـل حروبـا عنصريّـة يرمي الجنس البربري من ورائهـــا إلى القضـــاء على الجنس العربي ، وعلى حكم القريشيين خصوصا .

وننتقل بالأحداث سريعا إلى سنة 755/138 لنربطها بالأحـداث التّي تعنينا والتّي لها علاقة بأصل موضوعنا . زحفت في هذه السنة بعضُ القبائل الصّفرية على إفريقيّـة ، فتغلّبوا عليهـا ، واستولوا على مدينةالقيروان ، «وربطوا دوابهم في المسجد الجامع ، وقتلوا كلّ من كان من قريش[7] ،وعذبّوا أهلها وأساءَتْ ورفجومـة لأهل القيروان سُوءَ العذاب ...»[8] .

والغريب في الأمر أن أهـل القيْروان أنفسهم الـذين بعثـوا إلى الـورفجوميـة يَسْتَعْدُونهم على الـوالي حبيب بن عبـد الرحمـان بن حبيب الفهري الّـذي طغى ، وأطلـق يـد أعوانـه وجنـده يسلبـون وينهبون ويسومون النـاس سـوء العـذاب . ولّما حصـل لهم على يـد الورفجوميّة ما جعلهم يندمون اسْتَنْجَدُوا بـأبي جعفر المنصور حسبَ بعض الروايات ، وبأبي الخطّاب المُعافري إمـام الإباضيـة بطرابلس استنادا إلى رواية أخرى .

والظـاهرُ أنّ أهـلَ القيروان ، وَقَـدْ ضـاع عنهم رشـدُهم وانخَرمت صفُوفهم بفَقـدهم لقيـادة شعبيّـة يقـوم بهـا شخصٌ منهم فيـوجهُهم إلى أقـوم السـبـل ، ويجنبُهم الارتجـالَ والتصرفـات الطـائشـةَ التّي تعـودُ عليهم بالوبَال ، الظّاهر أنّهم قد وَجـدوا في شخص عبـد الرحمـان بن

---

(7) وقتلوا كل من كان من قريش . يلاحظ هذا !

(8) ابن عذارى ، البيان المغرب 1 : 71 .

رستم قائداً رشيدا وزعيما بصيرا في هذا الظرف الخطير من حياتهم . كان عبد الرحمان متباعدا عن السيَّاسة مُنْكبا على التَّعليم والتبصير بالدين ، فحرّكته هذه الأحداث ، وهزته النَّكبة التّي حلّت بالقيروان هزا عنيفا فنهض لِمَحق الظلم وتطهير الأرض من إثم الحاكمين وعبث المُفْسدين ... فبادر يستنجد بزميل له في حلقات الدّروس بالبصرة سابقا ، قاوم ظلم الولاة من بني العبَّاس بطرابلس ، فدانت له البلاد ، واختارته إماما عليها لعدله واستقامته . هذا هو أبو الخطَّاب عبد الأعلى بن السمح المعافري ، فهبَ لأداء الواجب الذّي يفرضُه عليه التَّعاطف الأخوي ويُحتمه مَبدأ من أهم المبادىء لمذهبه ، ألا وهو مقاومة أولي الأمر بالسيف ، واستباحةُ دمائهم إذا الخطَّاب في جيش عظيم تطوع لإقامة العدل ومحق الفساد والظلم الذي اقترفه عاصم الورفجومي[9] وأتباعه ... فكان له النَّصر .

ثمّ بعد أنْ أمَّنَ النَّاسَ حافظا أرزاقهم وأعراضَهم ولّى على القيروان عبدَ الرحمان بن رستم ورجع إلى طرابلس . ودامت ولايةُ ابن رستم سنتين اثنتين[10] ، ذاق المسلمون فيها بالقيروان وبإفريقيَّة كلها طَعَم الأمن وعرفوا معنى العدل ، وأدركوا لأوَّل مرّة تقريبا طعْم العيش الكريم في ظلّ الحكم الإسلامي النظيف . لكن لم تمض مدّة طويلة بطرابلس ، ثمَّ تَغَلَّبتْ على ابن رستم وأخرجته من القيراون ، واستعادت إفريقيَّةَ لسلطة بني العبَّاس كما كانت . وارتحل

---

(9) يذكر صاحب البيان المغرب 1 : 317 ان «من جملة من ولي القيروان» الصفريان ـ عاصم الورفوجي وعبد الملك بن الجعد وكانت مدتها سنة واحدة وشهرين» .

(10) نفس المصدر والصفحة .

ابنْ رستم إلى المغرب الأوسط حيث هيَّأ الأسْباب وأعَدَّ العدّة لإقامةدَوْلة . وما عَتَّمَ أنْ أنشأ دولة إباضية بتاهرت[11] ، أخذت على عاتقها تركيز الدّين في نفوس النَّاس على قواعد راسخة ، وتطهيره ممَّا علق به عن طريق أصحاب البدع من الصفرية وأرباب الحكم من الولاة والعمَّال الانتهازيين .

وَشَاءت الأحداثُ أن تَنْقرض الإمامةُ الإباضيةُ من طرابلس[12] فأصبحت تاهرت مركز الإمامة . و«كانت أغلبيَّة بلاد إفريقيَّة في الجنوب والوسط تابعة لهذه الإمامة ، وكان عمّال الدّولة الرستمية يقيمون أحكام الله في تلك البلاد نيابة عن الدوّلة الرستمية ... وقد استمرت هذه الجهات تحت حكم الدوّلة الرستميَّة الى أن تغلَّبت عليها الدولة الشيعيَّة فخرّبت تاهرت ، وانقرضت من هنالك سلطَتُها» .

من هَذَا نفهم أن كثيرا من أهل إفريقيَّة من سكَّان المناطق المذكورة كانوا يدينون بالولاء إلى السلطة الإباضية بتاهرت ، أما ولاء سياسيا ، أوولاء مذهبيا ، منذ الزحف الورفجومي علىالقيروان إلى أن قامت الدّولة الفاطميَّة ... ثم استمر ولاؤهم بصفته المذهبيَّة الدّينيَّة ، إذْ أنّ سكَّان الجنوب من إفريقيَّة وإن لم تقم لهم دولة ، فقد كانوا تحت نفوذ مشائخ العلم والعزابة من الإباضية ، لذلك كانوا كأنّهم يمثلون دولة لها سيادتها ولها تنظيمها الإداري والدِّيني ،

---

(11) كان ذلك سنة 761/144 .

(12) كان ذلك على يد يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب سنة 772/155 . وقد زحف على افريقية من قبل أبي جعفر المنصور في جيش من جيوش الشام والعراق وخراسان فنزل بطرابلس واستعمل عليها سعيد بن شداد بعد تغلبه على أبي حاتم الأباضي . وكان وصوله الى القيروان يوم الأثنين 10 جمادي الثانيةللسنة : 772/155 .

واستقلالها الذاتي طوال الدّولة الأغلبيّة وما قبلها بقليل وما بعدها . ويكفي دليلا على ذلك ما أشار إليه بعضهم[13] من أنّه كان للمذهب الإباضي مُفْتِيَان اثنان في القيروان في النصف الثّاني من القرن التّاسع الميلادي (منتصف القرن الثالث الهجري) .

وقد قاومهم بنو الأغلب وحاربوهم محاربة لا هوادةَ فيها ، وإن كان لا يعنينا ذكر ما دار بين الدولة الأغلبيّة والدولة الرستمية بتاهرت بينها إنّما هو دافع مذهبي يرى فيه الإباضية أنّهم حماة الدّين والسنّة ، ويراهم أمراء بني الأغلب خوارج متنطعين أصحابَ بدع ، والواقع أنّ الإباضية قد تمكّنت من فرض وجودها التّاريخي ، فحقّقت عزّا دينيا ذا بال بقيت آثاره إلى اليوم في أتباعه الذّين يعيشون بيننا ، التزموا خدمة الدّين ومقاومة البدع والرذيلة ، حازمين في أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، كما حقّقت مجدا سياسيا كان له شأنه في تاريخ الإسلام بالمغرب العربي .

وننبه إلى أمر له أهميّته بالنسبة لمن يريد أن يقف على دور الإباضية بإفريقيّة وموقف النّاس منها ، ذلك أنّ كتب التّاريخ في سردها للأحداث التّي جدّت بين ولاة الأمر بإفريقية وبين أتباع المذهب الإباضي تعتبر هؤلاء ثائرين خارجين عن الطاعة بل عن الدّين ، يُنعتون بما ينعت به كلّ متمرّد . وكان أصحاب تلك

---

(13) المصدر نفسه ص : 37 . اقول : ربما كان لهذين المفتيين وجود قبل استلام سحنون مقاليد القضاء . اما في مدة قضائه فلايصح ذلك . لأن الأمام سحنون قداقصى من المسجد الجامع مشائخ كل الفرق الذين كانوا به . وقد تولى سحنون القضاء س : 848/234 . وعلى هذا يكون للاباضية وجود بالقيروان قبل هذا التاريخ . اما في أواخر القرن 9 م . (أواسط 3 هـ) فغير ممكن وجودهم اللهم الا اذا كان ذلك في الخفاء وفي نطاق السرية .

الكتب ـ وهم سنيون مالكيون غالبا - يعدّون الإباضيَّة فرقة كسواها من فرق الخوارج المغالية في المعتقد ، ولا يعنيهم أن يفرّقوا بينها وبين غيرها استنادا إلى ما بدا منها ومن أتباعها من تصرف بَاعدَ بينَها وبَيْن الفرق المبتدعة .

☆ ☆ ☆

أما الكتب التي أُلّفت في تراجم علماء إفريقية وإن لم ترد فيها إشارة ولو طفيفة إلى تسنّن المذهب الإباضي ، فإنّها لم تتعرّض كذلك إلى شتم أتباعه أو الغض من شأنهم ... إلاّ ما جاء فيه عن موقف الإمام سحنون من كافة أصحاب الفرق . وعلى عكس ذلك الصفرية ، فإنّنا نجد في تراجم بعض العلماء بهذه الكتب أنّ فلانا اتهم بالصفرية ، فأعرض طلاّب العلم عن السمّاع منه والأخذ عنه ... أليس في هذا ما يدفع إلى القول بأنّ العلماء بإفريقيَّة كانوا يعتبرون علماء الإباضيَّة سُنّيين مثلهم ، وأنّ جوّا من الوئام والتّعاون كان ربّما يسود علاقات بعضهم ببعض . أظنّ ذلك أمرا ثابتا خصوصا أنّ الإباضيَّة كانوا يؤمون نفس المساجد التّي يؤمها أهل السنَّة ، وَيُمْلُون تعاليمهم بكامل الحرّية إلى جانب المالكيّة في كثير من الجهات بإفريقية .

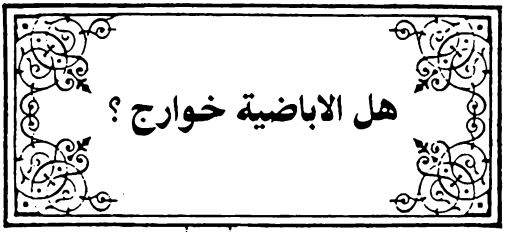

. . . والسؤال هنا ، هو : لماذا يرفض باقي المسلمين الاصغاء إلى حجج الفرق أمثال : الإباضية ، الجعفرية ، الزيدية الخ . . . على الجمهور السني بدون أن يضَع علماء السنّة عراقيل تحول دون فهم العوام ، وإنصاف المتعلمين حقيقة الفرق الأخرىٰ ؟ . . .

هل الاباضية خوارج[1]

بقلم : دكتور عمربا

كل المصادر للتاريخ الإسلامي أجمعت بأن عبد الله بن أباض ، زعيم المذهب الأباضي ، كان من الخوارج وانشق عنهم . ولذا فإن المؤرخين ـ غير الأباضيين ـ يربطون أتباعه « الأباضيين » بالخوارج ويعتبرونهم مجرد فرقة من الخوارج .

قالت دائرة المعارف الإسلامية عن الأباضية :

« يطلق هذا الاسم (الأباضية) في شمال إفريقية على فرقة من الخوارج الذين انفصلوا عن علي عندما قبل التحكيم مع معاوية » .

وفي فلسفة الأباضية حول الخلافة والخليفة تقول دائرة المعارف الإسلامية :

« رأى الأباضية في الإمامة ، ليس من الضروري أن يكون الإمام قرشيا بل يكفي أن يكون فاضلا ورعا ، وأن يحكم طبقا لأوامر القرآن والسنة ، فإذا ابتعد عنهما ، وجب خلعه »[1] .

---

(1)الدكتور عمر بن الحاج صالح با (سنغالي) أستاذ جامعي ، مهتم بالفكر الإباضي .

(1) ج 1 ، ص : 114 .

وقال أحمد أمين في « ضحى الإسلام » عن الأباضية في معرض حديثه عن الخوارج من أجل هذا لم يرد لنا عن الخوارج مذهب مفلسف . ولا فقه واسع منظم ولا نحو ذلك ، إلا ما كان من الأباضية ، أتباع عبد الله بن أباض الخارجي ، الذي مات في عهد عبد الملك بن مروان ، فإن هذه الفرقة عاشت وانتشرت في شمالي إفريقية ، وفي عمان ، وفي حضرموت ، وزنجبار .

واستمرت إلى يومنا هذا . فكان من الطبيعي أن يكون لهم أصول اعتقادية وتعاليم فقهية الخ .. « إلى أن يقول « فما استقر السفاح في خلافته حتى تحرك خوارج عمان ، وعلى رأسهم الجلندي ، وكان هو وأصحابه من الخوارج الأباضية ، فأرسل إليهم السفاح جيشاً على رأسه أحد القواد العظام ، خازم بن خزيمة . فسار في البحر حتى أرسى على ساحل عمان الخ ..» ويقول أيضا « وثار الخوارج أيضاً في الغرب (تونس وما حولها) من صفرية وأباضية ، فأرسل إليهم المنصور عمر بن حفص من ولد قبيصة بن أبي صفرة اخى المهلب ، فدامت المعارك بينهم طويلا ، وانضم كثير من البربر إلى الخوارج وكان على رأس الخوارج أبو حاتم الأباضي الخ »[2] .

والأستاذة الدكتورة / سيدة اسماعيل كاشف ، قد لاحظت وذكرت تلازم اسمى الخوارج والأباضية في كتب التاريخ وأقلام الكتاب فقالت : « لكننا نلاحظ أن جل المؤرخين وكتاب الفرق والعقائد والنحل القدماء والحديثين ، فضلا عن سائر الكتاب ، يعتبرون الأباضية إحدى فرق الخوارج ، وهذا واضح مثلا في كتابات الأشعري والمالطي الشافعي ، وعبد

---

(2) ضحى الإسلام ، ج 2 ص : 336 ـ 337 ـ 338 ط دار الكتاب العربي بيروت .

القاهر البغدادي ، والخطيب الرازي ، وابن حزم الأندلسي ، والشهرستاني ، والشاطبي الغرناطي ، فضلا عن سائر الكتاب المعاصرين ، المستشرقين منهم ، وغير المستشرقين » . وتضيف قائلة : « وأدخلهم البعض عن جهل أو تعصب ضمن فرق الغلاة الذين غلوا بدينهم وخرجوا عن أصول الإسلام » .

سوى أنها سرعان ما تضع ملاحظة أخرى مهمة لها قيمتها . فتقول وفي اعتقادنا أن إطلاق صفة الخوارج على الأباضية يرجع إلى الجهل بالمصادر الأباضية والفقه الأباضي[3] الخ .

وقال عنهم الأستاذ الكبير محمد أحمد أبو زهرة « الأباضية هم أتباع عبد الله ابن أباض ، وهم أكثر الخوارج اعتدالا ، وأقربهم إلى الجماعة الإسلامية تفكيراً ، فهم أبعدهم عن الشطط والغلو ، ولذلك بقوا ولهم فقه جيد ، وفيهم علماء ممتازون ، ويقيم طوائف منهم في بعض واحات الصحراء الغربية ، والبعض الآخر في بلاد الزنجبار ، ولهم آراء فقهية ، وقد اقتبست القوانين المصرية في المواريث بعض آرائهم الخ[4] ..

غير أن الأباضية لم يدعوا فرصة سانحة بدون ان ينتهزوها معلنين براءتهم من الخوارج ورفضهم لمباديء الخوارج وأفكارها ومعتقداتها المغالية المتطرفة عقائدياً . فما من عالم أباضي كتب إلا وأبدى تبرأ المذهب الأباضي من الخوارج وأبعده منذ تاريخ نشأة المذهب إلى اليوم ، والحق أن الأباضية

---

(3) عمان في فجر الإسلام ، ص : 12 ـ 43 ـ 44 .

(4) المذاهب الإسلامية ، ص :

قدمت نفسها إلى المسلمين بصفتها أحد المذاهب الإسلامية لا كإحدى الفرق المتطرفة المغالية .

غير أنه من الواضح أن المسلمين السنّيين ـ وهم الغالبية العظمى في الجماعة الإسلامية ـ ظلت نافرة أو متحفّظة عن اعتراف الفرق كإخوان على قدم المساواة ، كما تعترف المذاهب الأربعة السنية ببعضها بعضا ، معتبرة خلافاتها ، بأنها خلافات في الفروع ، لا تمس جوهر العقيدة ، وأن عقيدتها واحدة في الأمور الأساسية الرئيسية (روح العقيدة) .

والسؤال هنا ، هو : لماذا يرفض باقي المسلمين الإصغاء إلى حجة الفرق أمثال : الأباضية ، الجعفرية ، الزيدية الخ .. بروح رياضي ؟ ولماذا لا يفتحون لها مجالا في عرض آرائها على الجمهور السنّي بدون أن يضع علماء السنّة عراقيل تحول دون فهم العوام ، وأنصاف المتعلمين حقيقة الفرق الأخرى ؟ ولم يصطنعون التشويش في الجوّ الذي يسود العلاقة السنّية الفرقيّة ؟ وما هي المصلحة في إبقاء تلك العلاقة متوتّرة دوما ، وكأن العلاقة من طبيعتها أن تتوتّر ؟ بيد أني أعتقد ـ مع وضع الفرق الأخرى غير الأباضية جانباً ، لأن الأباضية هي موضوع دراستنا ـ أن كل المسلمين الذين أتاح لهم الحظّ الاتصال بالأباضية يجدون أن ما يقال عنهم غير صحيح ، بل إنهم مسلمون كباقي المسلمين ، قد يخطئون في اجتهاداتهم حينا ، ويصيبون في أكثرها كغيرهم تماما ، لأن المصدر واحد ، وهو كتاب الله وسنّة رسوله بلا أدنى تمييز بين هذا المذهب أو ذاك ، غير أن المسلمين السنّيين في الحقيقة ما زالوا يتقبلون في خطأين . وأما الأول : فخطأ تاريخي ، والثاني : خطأ منهجي .

والخطأ الراجع إلى التاريخ ، هو في رأينا ، الاستمرار في خلط الأمور التي تداخلت يوما ثم انفصم بعضها من بعض فيما بعد عمليا ، إلا أن المؤرخين بقوا يضعونها في خانة واحدة . أقصد من هذا عدم التمييز بين الأباضية والخوارج ، رغم انفصال زعيم الأباضية عن الخوارج ، ومحاربته إيّاهم ، ورغم شهادة التاريخ بأن أحد أكبر قادة الجيوش الإسلامية التي حاربت الخوارج حروبا متواصلة ضارية ، كان أباضيًا عُمانيا وهو مهلب بن أبي صفرة . ورغم اعتراف باقي المسلمين بأن الأباضية شديدو الغيرة على الإسلام والتمسك به ، والتفاني بالإخلاص له ، وعدم الاتصاف بالتعصب المذهبي ، ومع كلّ هذا فالمسلمون الآخرون ظلّوا ينظرون إلى الأباضية ـ من خلال صورتهم المرسومة في كتب التاريخ ـ على أنهم مجرد فرقة من الخوارج . وهو ما جعل الناس تنظر إليهم نظرتها إلى الخوارج في إطار ما قيل عنهم تاريخيًا ، سواء أكانوا مظلومين في الأحكام التي أنزلت عليهم أم كانوا حقًا كما وصفتهم كتب التاريخ التي نقرأها ونستقي منها معلوماتنا عنهم .

والحق أن الخوارج كانوا مرفوضين من الجماعة الإسلامية ليس فقط لأنهم كانوا من بين أتباع الإمام عليّ ، ثم تمردوا عليه ، وانفصلوا عنه وحاربهم ، وحاربوه ، رغم اتفاق كافة المسلمين بأن إمامته كانت سائغة شرعياً . فلو كان الأمر متوقفا على مخالفة الإمام ، لهان ، لأن وجهة نظر الخوارج في تخطئتهم الإمام في قبوله التحكيم ، وجهة نظر لها حججها ، إلا أن من دقق النظر في الملابسات التي أدت إلى قبول الإمام للتحكيم يدرك بأن الإمام كان في وضع وظروف من الدّقة والحساسية والخطورة بحيث لم تدع

له حرية للتصرف أو مجالا للمناورة سياسيا ليخرج من تلك الدوّامة بربح أكبر وخسارة أقل .

ولكن أمر الخوارج هؤلاء ، تمادى واستفحل حتى كان اغتيال الإمام في يد أحدهم لا في يد خصمه المتربد العائق لرأي الجماعة « معاوية بن هند » فعندما تم اغتيال الإمام على يد الخوارج أصبحوا يحملون وصمة يلازمهم عارها أبد الدهر ، ومع فداحة الخطب فإننا لا نجدهم قد ندموا ، أو يحمّلون الفاعل وحده ، « وزر إزهاق تلك النفس الزكيّة » حيث لا تزر وازرة وزر أخرى ، بل إننا نراهم حبارى مسرورين بفعلة زميلهم هذه الشنعاء ، « عبد الرحمن بن ملجم » هذا الذي يتشاءم البشر من ذكر اسمه ، ويقول قائلهم مشيدا بحادثة الاغتيال :

يا ضربة من (تقيّ) ما أراد بها ... إلّا يبلغ ذي العرش رضوانا
إني لأذكره يوماً فأحسبه ... أوفى البريّة عند الله ميزانا

ناهيك عن استمرارهم في تكفير باقي المسلمين واستحلالهم دماءهم وأموالهم مما جعلهم منهوكين إسلاميّا ، إذاً ، فكل ما يرتبط بهم يلحقه ما يلحقهم . وبما أن كتب التاريخ ـ وإن بطريقة النسب ـ تربط الأباضية بهم بصلة أو بأخرى ، لذا ظلّ الناس ينظرون إلى الأباضية بشيء من « الخوارجية » فكل من تحدّث عن الخوارج ، تسمعه يقول « لقد انقرضوا ، فلم تبق لهم باقية إلا قليلا في جبال عمان » يقوله بشيء من الاستخفاف .

وأما الخطأ المنهجي الذي وقع عليه المسلمون السنّيون ، فهو إصرارهم على اعتبار الكتب التي كتبوها عن « الفرق » هي المصادر والمراجع الصحيحة لكل شيء متعلق بالفرق وشؤونها ، وتاريخها ، ووجودها ، وعقائدها ، ومبادئها .

وهنا في معرض استمرار الأباضية نفي الزعم القائل إنهم « خوارج » والإصرار على ذلك ، يقول أحمد بن سعود السيّابي في مقدمة له لكتيب صغير الحجم[5] لمؤلفه « أبو إسحاق إبراهيم أطفيش » واسمه « الفرق بين الأباضية والخوارج » يقول « على أنه ليست ثمة علاقة تربط الأباضية بالخوارج الأزارقة والصفرية والنجدية وغيرها من فرق الخوارج ، وانما هى دعاية استغلتها الدولة الأموية لتنفير النّاس من الذين ينادون بعدم شرعية الحكم الأموي كما أن جعل المحكمة « أهل النهروان » الذين هم سلف الأباضية ، وليسوا سلفا للأزارقة والصفرية والنجدية من الخوارج ، هو من وضع الواضعين ، ومن صنع أرباب الأقلام المغرضة . مع أن الخوارج يسيرون في خط معاكس مع الأباضية . يتضح ذلك من خلال المباديء والأسس التي يقوم عليها مذهب كل من الفريقين ، وللأباضية العديد من المواقف ضد الخوارج .

إذاً ، فالأباضية يرفضون أن يكونوا من الخوارج فيرون أن تصنيفهم من جملة الخوارج هو من صناعة الدولة الأموية .

إلا أني مع تفهمي لموقفهم أرى أنه ليس من المستقيم جمع قولين متناقضين ، فكون الأباضية يعترفون أن المحكمة هم سلف الأباضية معناه . أنهم تاريخيًا يربطون أنفسهم بأس أساس الخوارج ، فأهل « النهروان » كما هو معلوم ، بذور الخوارج ونواتها . وأنا لا أعلم كيف يتبرؤون من الخوارج في حين أنهم ينسبون أنفسهم إلى أصل أصول الخوارج . وإذا كانت الأزارقة والصفرية والنجدية « كفروع » لا تنتمي إلى المحكمة كأصول ، فإلى أين ينتسبون ؟ فهل كان هناك خوارج قبل خروج المحكمة من صفّ الإمام

---

(5) ولكنه جدير بالقراءة لمن يريد الوقوف على الفرق بين الأباضية والخوارج .

عليّ ؟ والحق أنه لمن الصعب على الأباضية أن ينفوا أنهم ليسوا بخوارج في حين أنهم يثبتون أن المحكمة هم أصل الأباضية ، فالمرء يكاد يفهم من قولهم ذاك ، أنهم أكثر خارجية من الأزارقة . والنجدية . والصفرية أنفسهم ، اللّهم إلا إذا كان شافعهم هو أن قصدهم هو أن المحكمة ما كانوا خوارج بالمفهوم المتطرف الذي عرف به الخوارج الغلاة فيما بعد ، وهو قصد مقبول إن كان هو المقصود[6] . (☆)

غير أني ارجع وأقول من جديد بما أن الأباضية ينفون عنهم التعصب والغلّو فإنه ليس هناك داع يدعو إلى الإصرار أنهم خوارج وأنهم يقولون كذا ، وكذا ، لقد قابلت شيعيا وتحدثنا منفردين عن الأباضية ، فوصفهم بأنهم شديدو التمسك بالكتاب والسنة ، وأنهم ليسوا بمتعصبين . وقابلت بعد ذلك شافعيا فحدثني نفس الكلام . مما يثبت عندي ـ مع تجاربي الشخصية ـ أنهم بعيدون عن التعصب والغلو ، وهي شهادة أدليها لوجه الله ، والحق أني لا أجد وجها يبرر إقناع إنسان في اعتناق أو اعتقاد ما لا يعتنقه ولا يعتقد به . فأنا أتصور بأن مبتغانا كأمة محمد (ص) هو إحسان الظن في بعضنا بعضا ما وسعنا السعي إلى ذلك بغية توحيد صفوفنا وغض الطرف عن زلات أولئك الذين نعتبرهم محدثين في أمرنا شيئا ، طالما قد غيروا من مواقفهم أو أبدوا استعدادا لتغييرها ، ومعايير الحق تكمن في الاعتقادات والسلوك والعمل ، وليس في تقييم الأطراف المتنازعة بعضها بعضا .

---

(6) الفرق بين الأباضية والخوارج ، ص : 4 ، مطبعة الاستقامة . روي مسقط .

غير أن بعض الوعاظ والكتاب يظنّون انهم كلما وفقوا في بيان فساد عقيدة المذاهب الأخرى ، نالوا عند الله حظوة ، مما ولد كثيرا من تبادل التهم والتهم المضادة ، كأنما المسألة غدت وأصبحت مسألة « تنافس وغيرة » واحتكار منازل ، وجمع الفضائل في اليد والاستئثار بها ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ، ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السَّلَم لست مؤمنا ، تبتغون عرض الحياة الدنيا ، فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم فتبينوا ، ان الله كان بما تعملون خبيرا » . صدق الله العظيم ﴾ . النساء آية : 94 .

فتعليمات القرآن إلينا واضحة ، إذاً ، وهي : ألا نقول لمسلم إنك لست مسلما ، وإنك تعتقد كذا ، في حين أنه ينفي عن نفسه الأعتقاد بما نريده ان يعتقد فقط لنجد فرصة التعليق عليه والنيل منه .

ويستمر الشيخ القطب أبو اسحاق إبراهيم أطفيش في تنديده لأولئك الذين ظلوا يسيئون إلى الأباضية لإرجاع نسبهم إلى الخوارج ، فيقول « وما خلطوا بين الأباضية والخوارج إلا لطمس معالم الحق والصواب حسدا من عند أنفسهم ، وأنىَّ لمن اتخذ التشغيب مطية ، أن يعترف بالحق والصواب وقد عميت بصيرته »[7] .

ولا شك أننا نلمس أسلوبا متصفا بالرفض العنيف من الأباضية لتهمة نسبهم إلى الخوارج . ويقول عالمهم ، أطفيش ، الذي تحدثنا عنه ، في نفس السياق « فشلوا في قول الصواب ، فخلطوا بين الأباضية والخوارج . فتارة ينسبون الأباضية إلى الخوارج وتارة ينسبون الخوارج إلى الأباضية ، كما يفعل الكثير من المدوّنين في الأصول والفروع في إضافة أقوال المعتزلة إلى

---

(7) الأباضية بين الفرق الإسلامية ، ص : 36 .

الأباضية والعكس ، مما أوجب التخليط والتشويش ، فيذهب المؤلفون الذين يعتمدون على « النقل » إلى ما هو أشبه بالتهريج ، ولا عذر لهم عندي مطلقا لأن الذي ينشر الحق ، يطلبه من ينبوعه ، لا عن من يحتك حسب هواه .

وأما السبكي فيقول في طبقاته « إن المؤرخين على شفا جرف هار ، لأنهم يتسلطون على أعراض الناس ، وربما وضعوا في الناس تعصّبا أو جهلا أو اعتمادا على نقل من لا يوثق به ».

لقد دأب الشيخ الأباضي على يحيى معمر على تقصّي تلك الكتب التي تصدر وتعنى بدراسة الفرق ، فذكر بأن الكتاب يصنعون رجالا وهميين ، ويختلقون أقوالا زائفة وغير صحيحة ، وينسبونها إلى هؤلاء الرجال الصناعين ، وبالتالي ينسبونهم بأقوالهم الزائفة تلك إلى الأباضية فيقول :

« إن جميع الأشخاص الذين اعتبرهم[8] أبو الحسن إما رؤساء لفرق من الأباضية ، أو من مؤلفيهم ومتكلميهم لا وجود لهم عند الأباضية » .

الأباضية لا يعرفون شيئا عن هؤلاء الرجال وعن فرقهم .

فبعد أن ناقش أقوال القدامى من الكتاب الإسلاميين كان له لقاء مع الكتاب الإسلاميين المعاصرين الذين تبنوا نهج القدامى في الكتابة حول الفرق بدون أن يزيدوا في الموضوع شيئا ذا بال . فتحدث عن كتابة الأستاذ عبد القادر شيبة الحمد المدرس في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة : فقال مستنكرا تحامل « الأستاذ عبد القادر » على الأباضية ، ومفنّدا آراءه ومنتقدا أسلوبه « وهكذا يستمر الأستاذ شيبة الحمد يحاضر لأبناء المسلمين من سبعين بلدا في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ـ فلسفة

---

(8) الأباضية بين الفرق الإسلامية ، ص : 36 .

تنسب إلى الفرق الإسلامية لا وجود لتلك الفلسفة عند تلك الفرق ، ويتخذ لها أئمة وعلماء لا تعرفهم تلك الفرق ، وتعرف عنهم شيئا . بل قد تبرأ من تلك المقالات ومن يقول بها[9] .

ويضيف :« فكيف تسمح إدارة الجامعة العامرة في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تدرّس أباطيل عن فرقة من فرق المسلمين على طلاب سبعين بلدا من مختلف بقاع العالم . ويضيف « إذا كان التقليد الأعمى أو حب الراحة ، أو عدم العناية بالبحث والتنقيب ، أو حتى سوء النية ، هي الأسباب التي حملت « شيبة الحمد » على تلك المواقف ، فكيف للجامعة العامرة أن تغفل عن مراقبة ما يجري فيها في أهم ركن من أركان رسالتها ، وهي القوامة على كلمة الحق ، المسئولة عن العمل لجمع كلمة الأمة ، المطالبة بالتحقيق والتثبت والصدق في جميع ما تقدمه لأبناء الأمة في مجال العلوم الشرعية .

ويردف قائلا : كنا نأمل أن تعمل الجامعة الإسلامية على التحقيق فيما يقال عن فرق المسلمين وأن تأخذ آراءهم ومقالاتهم من كتبهم وعلمائهم ، وبذلك يمكن للجامعة أن تعلن كلمة الحق ، وتجمع الشمل ، وتوحّد الصف ، وتكون مركز القيادة الوحيدة لهذه الأمة بجميع مذاهبها لأنها مهّدت اللقاء بينهم على نور العلم وجعلت كل واحد منهم يعرف ما عند الآخر . أ هـ .

قلت : لو توفرت النية الصالحة لدى السعوديين لتبنوا هذه الخطة في رسم المناهج الدراسية في جامعتهم تلك ، فأهل من يعرفون بالفرق لا الإسلامية مجاورون لهم ، فالأباضية في عُمان ، فعُمان جارة لهم ،

---

(9) نفس المصدر السابق ص : 98 .

والشيعة الاثنا عشريون في العراق ، فالعراق جارة لهم ، والزيدية في اليمن ، فاليمن جارة لهم . بل فلا يستبعد أن يوجد أتباع لكل هذه المذاهب في البلاد السعودية نفسها كمواطنين مما يسهّل عليهم مهمة البحث من علماء مؤهلين لتدريس هذه المذاهب تدريسا سليما جادا نقيا بعيدا عن التحامل ، بدلا عن إناطة ذلك إلى علماء خارج تلك المذاهب ، فيكون في الأمر شيء من الاجتهاد . أو الافتراضات فالأخطاء .

ويواصل الشيخ علي يحيى معمر عرض آرائه وتمنياته إلى الجامعة الإسلامية ، فيقول «بل إننا نطمع في الجامعة في أكثر من ذلك ، وذلك بأن تكون لجانا للتأليف يشترك فيها علماء الأمة من مختلف مذاهبهم ، ويصدرون كتبا حسب المناهج المقررة في الجامعة لتدرس فيها ـ مشتملة على المقالات الحقيقية للفرق والمذاهب المعاصرة فعلا ـ وبذلك تقضي على النظرات الضيقة ، وتوقف زحف العصبية المقيتة . وتحول دون التأثير الفردي في توجيه الطلاب المسلمين .

إن الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة يجب ألا تصطبغ بمذهب معين فهي للمسلمين جميعا ، تقدّم لهم الثقافة الإسلامية من منابعها الصافية ـ كتاب الله وسنة رسول الله .

ونراه يتقدّم باقتراح إلى الجامعة ، وهو في رأينا اقتراح بناء ، بغية تفاهم المسلمين بعضهم بعضا . وهو اقتراح لو نفذته الدولة السعودية ـ وهي على ذلك قادرة ـ لاستحقت الشكر والثناء من كافة المسلمين ، لأنه عمل لو نفّذ لكان من شأنه رفع سوء التفاهم وبذر روح التآخي في الأمة» . وقال «وفي إمكانها أن تعقد مؤتمرا سنويا لعلماء جميع المذاهب الإسلامية سواء كان ذلك أيام الحج أو في غيرها ، تطرح فيها القضايا الهامة وتوضح الآراء والعقائد بحججها وبراهينها . وتزود الجامعة بالمراجع المعتمدة لكل مذهب ،

وإيضاح الأقوال المعمول بها . على أن يكون هذا المؤتمر مؤتمر عرض وايضاح ، لا مؤتمر جدال يزيد فيه كل أصحاب مذهب أن يبرهنوا على صحة مذهبهم وبطلان غيره الخ ....» .

فأنا أعتبر هذا الكلام كلاما رائعا وحكيما . بل هو في غاية الروعة والحكمة والصواب . إذا أريد للمسلمين التفاهم وتخلي التنابز بالألقاب . ولو قدّر للفئات الصغيرة «عدديا» طرح آرائها وتصحيح معتقدات الناس بها لظهرت تفاهة ما يكتبه الآخرون عنها . والحق أن هذا الرأي لجدير بالاهتمام .

غير أني أعتقد بأن تنفيذه ليس بالسهولة التي تصورها صاحب الاقتراح ، فبعض الناس «من العلماء والحكام» يفضلون بقاء هذه الخلافات وسوء التفاهم ، لأن من مصلحة «علماء السوء» (اختلاف الناس) ليجدوا مادة خصبة كمبرر للافتراء على الغير بحجة الدفاع عن المحجة البيضاء ، وفلسفة الأمور ، وتأويلها على نحو يزيد الأمور سوءا والأوضاع توترا ، وأما الحكام فمن المعلوم البديهي أنه كلما تطور سوء التفاهم بين طبقات الشعوب ، ازداد انشغالهم عن السياسة ومراقبة لعب الحكام . وهذا من شأنه أن يجعل الناس مشغولين دوما بأمور تتعلق بعلاقات بعضهم بعضا منصرفين انصرافا نهائيا عن مراقبة أعمال الحكام . وهكذا .

«وهل أفسد الدين إلا الملوك ـ وعلماء سوء وأحبارها» .

ولا شك أننا أطلنا الإنصات إلى الأباضية وهم ينفون عن أنفسهم تهما نسبت إليهم . فالغاية الوحيدة التي توخيناها هي إتاحة الفرصة لهم ليقدّموا أنفسهم إلينا كما يحلو لهم ، ونفهمهم كما يريدوننا أن نفهم ، وليس أن نفهمهم كما نريدهم أن يكونوا (فرضا عليهم) .

والحق أن ما ورثناه من تعدد المذاهب واختلاف الفرق والنحل يجب

ألا نعتز به . بل علينا أن نعتبره ظاهرة سلبية تستحق المحاربة لا الاعتناء بها ، علنا نوحد صفوفنا . نعم .. ومما لا شك فيه أن هذه الفرق أصبحت ذات أصالة تاريخية ومن الصعوبة استئصالها من شأفتها . غير أن (الإسلام بلا مذاهب) زعيم بالقضاء على ظاهرة التشرذم هذه ، لو اعتنى بهذه الفكرة ، فلم الاستمرار في تدريس التلاميذ مشاكل الفرق . بل لأسماء فرق لم توجد ، ولم تكن يوما إلا في أسمار الكتب من وحي كاتبها ، دفعتهم إلى إيجادها دوافع لا تعنينا نحن اليوم ، والتمسك بتلك الأقوال ، وكأنها ماء ذهب أو ذائب ماس .

أليست هذه أساليب تحجير لعقول الشباب المسلم ؟ فوالله إنها لهي الرجعية بتفاصيلها .

فالأباضية ـ على ضوء ما تقدم ـ ليسوا بخوارج ، بل هم مذهب كأي مذهب إسلامي آخر ، وان كان هناك قاسم مشترك بين الأباضية والخوارج فهو ظهورهما إلى حيز الوجود في وقت واحد تقريبا ، وظهورهما إلى النور انبثاقا من قضية واحدة ، وقاسم مشترك . ألا وهو «رفض التحكيم» ، وعدم إقرار شرعية الحكم الأموي المتمخض عن تمرد معاوية على الإمام الشرعي المنتخب بالشورى نصا (أي الإمام عليّ) غير أنهما مختلفان باختلاف آرائهما ومبادئها . بل لقد حارب بعضهم بعضا .

والحق أن علاقة الأباضية بالخوارج كالعلاقة بين الاشتراكية ، والشيوعية ، مثلا ، ولا اعتقدها مقارنة بعيدة الاحتمال سينكرها القارىء عليّ ، فبينما نرى في المفهوم الرأسمالي أن الاشتراكية والشيوعية موضوعتان في طابور واحد ـ رأسماليا ـ لتشابه المباديء والبرامج ، نتيجة تشابه الظروف الممهدة لولادة هذه المباديء . فإننا نعلم ونعترف أن الشيوعية غير

الاشتراكية ، ولا يغرنا تشابه النزعة بينهما ـ نسبيا ـ والقاسم المشترك الوحيد بينهما هو رفض الفكر الرأسمالي ذي النزعة الاحتكارية .

فلا أحد منا ينكر اشتراكية جمال عبد الناصر ـ مثلا ـ غير أنه لا أحد في الوقت نفسه يتهمه بالشيوعية . لقد رأيناه عنيفا ضد مناوىء البرنامج الاشتراكي في بلاده ، ولقد رأيناه ـ أيضا ـ حربا على الشيوعيين في مصر وزجهم في السجون وأودعهم غياهبها . وعامل المعسكر الاشتراكي معاملة صديق وزميل في درب الكفاح ، لقاسم مشترك بينهما وهو «اليسارية» ورفض الفكر الرأسمالي ذي الجذور الإمبريالية ، ولم نتهمه بالتناقض في السلوك ، أو الشيوعية البحتة لاستعداد نفسي وثقافي فينا لتفهم موقفه وتفهم الفرق بين الاشتراكية والشيوعية فلم ، إذاً ، لا يكون لدينا نفس الاستعداد الثقافي والنفسي لتفهم دوافع المواقف لمختلف الفرق تاريخيا ؟ ثم تفهم سبب اختلاف آرائها في الاعتقادات الأيديولوجية ؟

والحق أننا لو ألقينا نظرة على العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، واستعرضنا الأنظمة الحاكمة فيها ، لألفينا معظمها اشتراكية الاتجاه والنزعة ، في حين أنها ترفض الشيوعية ، بل تحاربها بصدق وإخلاص ، ولا أحد يصر على تسميتها «أنظمة شيوعية» لإدراك الناس الفرق بين الشيوعية والاشتراكية إدراكا واضحا . وهكذا فقس العلاقة ـ أيامئذ ـ في التاريخ السحيق بين الفرق «الخوارج» و«الأباضية» و«التشيع» و«السفيانية» (الولاء لبني أمية) لأن كل هذه الفرق ولدت من أب واحد ، وهو اختلاف الناس بعد مقتل ذي النورين أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، ثم مبايعة الناس أبا السبطين علي بن أبي طالب وتمرد أبي يزيد معاوية ، وما واكبها من أحداث وحروب وفتن الخ ..

فبادىء الأمر كان كل من الأباضية والخوارج والشيعة في صف الإمام

علي ، تحارب الفئة الباغية «معاوية وعمرو ومن معهما» . وعندما نجحت الحيل السياسية التي نسجها عمرو لمعاوية «كخداع» ، لعلي ، تزعزع معسكر الإمام علي ـ وكان ذلك هو قصد عمرو وراء فكرة التحكيم هذه ـ فانقسم أتباعه إلى قسمين : قابلة للتحكيم ورافضة له ، قابلة للتحكيم باعتباره احتكاما إلى قاضي القضاة «القرآن الكريم» فالظاهر أن هذه الفرقة لم تتصور في أن أحدا يجرؤ على اتخاذ القرآن محل مناورة سياسية قصد إحراز نصر دنيوي خالص ومكاسب سياسية بحتة ، إلا أن الفرقة الأخرى الرافضة ، لم تنطل عليها هذه الحبكة ، فأدركت أن وراء الأكمة ما وراءها ، واستيقنت أن الدعوة إلى الاحتكام إلى القرآن مجرد حيلة لم يقصد بها الإذعان لحكم الله ، فرفض معاوية ـ قبل ـ الدخول فيما اتفق عليه المسلمون ـ مبايعة علي ـ رفض سافر وواضح لحكم القرآن ، فلا داعي ـ إذا إلى الاحتكام .

والظاهر في النصوص التاريخية ، أن الإمام عليا كان يميل إلى رأي الفرقة الثانية ـ الرافضة للتحكيم ـ لأنه كان يقول عنه إنه «كلمة حق أريد بها باطل» وهو يشير إلى مسألة التحكيم إلى القرآن .

ولا شك أن الأباضية والخوارج ، كانوا من أشد رافضي قبول فكرة التحكيم ، بيد أن ظروفا أجبرت الإمام علي على قبول فكرة التحكيم أخيرا ، وأخيرا ظهرت نتائج التحكيم برسوب الإمام ونجاح «ابن هند» بالتفوق . وشرع صف الإمام يتضعضع تضعضعا دكه فيما بعد ، فأضحى رمادا .

وأنقسم عليه أتباعه ، وانفلت من يديه زمام السيطرة على الأمور وتوجيهها طبق مصلحته وكما يحلو له ، كما كانت الأمور طيعة في يد خصمه ، غير أن فصول المآسي لم تنته هنا ، إذ عاين معاوية بشائر النصر

تلوح له في الأفق ، وأصبح لا يرضى عن الانتصار الحاسم بديلا ، وذلك بالتوفيق الذي كللت به مهمة مندوبه ـ عمرو ـ في بلبلة أفكار مندوب الإمام ـ أبي موسى الأشعري ـ وبالتالي بلبلة أفكار أتباع الإمام وإحداث شرخ واسع في صفوف أنصاره . وبهذا كان الإمام علي قد انهزم في المحكمة عن طريق مندوبه الضعيف ، ورأت مجموعة كبيرة ـ من أصحابه ـ بما فيهم الأباضية والخوارج «كانوا طائفة واحدة يومئذ» أن الإمام لم يعد إماما رسميا وشرعيا للمسلمين ، ذلك لأن مجرد قبوله لمبدأ التحكيم ـ تحت أي ظرف من الظروف ـ يوحي بأنه لم يعترف بنفسه (الإمام الشرعي) للمسلمين ، وأخرى ، وهي بما أنه قد قبل التحكيم رسميا ، فإنه مرغم ـ أدبا وقانونا ـ على قبول النتائج التي سوف تسفر عن ذلك التحكيم وتترتب عليه .

وعلى مستوى القيادة ـ قيادة الأمة ـ فان منصب «الخلافة» أو الزعامة الاسلامية بقي شاغرا مدة أيام الاحتكام حيث أوقف الطرفان الاقتتال (وقف اطلاق النار) للمفاوضة .

وهنا قامت المجموعة الرافضة للتحكيم بسده ، إلى تقليد أحدهم منصب «الخلافة» ، وهو عبد الله بن وهب الراسي بدون أن ينتظروا نتائج التحكيم ، لأنهم ـ مبدئيا ـ رافضون لخلافة معاوية ، وزعامته على المسلمين . فلم يكن هناك ، بالنسبة إليهم ، ضرورة تدعو إلى التريث لحين معرفة المنتصر ، وثبت في مفهوم المحكمة ، أن الإمام الشرعي قد تنازل عن حقه قبل اجراء انتخاب جديد ـ بدون شروط مسبقة ـ وعليه فلم تعد بيعته على عواتقهم .

ويبدو أن قوما آخرين قد تخلوا عن الإمام اثر قبوله التحكيم وانهزامه في نتيجة الاحتكام فضلا عن الخوارج والأباضية .

غير أن قوما كانوا يتعاطفون مع الإمام مائة في المائة ، ويناصرونه سرا

وجهرة ، مناصرة مطلقة ، فهم قد ظلوا واقفين معه ، مدافعين عنه ، لا يتأثرون بأى مؤثر خارجي طارىء ، فهم معه معية صادقة وكاملة ، لا يراجعونه فيما يقبل أو يرفض ، لأنه ـ في نظرهم ـ لا يقبل شيئا إلا بحكمة ولا يرفض آخر إلا لسبب . فهؤلاء هم الذين بقوا له شيعة وأتباعا مخلصين له ولذريته من بعده وما زالوا له شيعة ، وما زال لهم إماما حيا في قلوبهم «لا مغمز في الإمام» .

غير أن حادثة الانشقاق عنه لم تتوقف ، بل لقد استمرت حوادث الانشقاق بين أتباع القدامى ـ سواء الموالين له ، أو الخارجيين عليه ـ فأصبحت ظاهرة مألوفة فيهم ، وكأن الله ابتلاهم به . فالخوارج أنشق عنهم الأباضية فأصبحوا يشكلون فرقة خاصة بهم ، بعيدة عن الفكر الخارجي . والخوارج الغلاة أنفسهم مضوا ينشق بعضهم عن بعض إلى أن بلغوا فرقا متناوئة ومتقاتلة ، ولا أعتقد أن الأباضية نفسها قد سلمت من طاعون الانشقاق هذا ، وان كان بصورة غير حادة ، فأصبح لها فرق ـ وفي الواقع فرق أباضية لا ينكرها الأباضيون لعدم وجود خلاف جوهري بينهم[10] ـ وشيعة الإمام عليّ أنفسهم لم يسلموا من وباء الانقسام هذا فانقسموا إلى زيدية واسماعيلية واثنا عشرية الخ .. على أن التشيع للإمام والولاء له حيا وميتا هو القاسم المشترك بينهم كشيعة .

أما الأباضية على ما يظهر فإنها سلكت سلوكا وسطا بين الأمرين ، فهي ما ناصرت عليا وشايعته بمجرد أنه علي لما له من مزايا ومناقب ومركز عظيم في الإسلام ، بل هي ـ أي الأباضية ـ كانت معه لاعتقادها أنه على حق ، ويمثل الحق . ولما تغير رأيها تركته بدون أن تكون له أو عليه .

---

(10) الأباضية بين الفرق الإسلامية ، ص : 253 .

وأما الغلاة من الخوارج فإنهم وقفوا منه موقفا لا يقل عنفا عن موقفهم ـ وهم معه ـ ضد خصمهم المشترك «معاوية» أيام الصداقة والصفاء ، بل وعلى سائر المسلمين الآخرين ، مما يدل على أنهم ما كانوا يتبعونه لاجل شخصه ، بل لاجل ما كانوا يعتقدونه به ممثلا لرأيه الحق ، فلما تغير ، تغيروا ، لأن تغير الظروف يؤدي إلى تغيير المواقف .

الأصول التاريخية للفرقة الاباضية

. . . قام الإباضيون بجهود مشكورة في نشر الإسلام في أماكن كثيرة ، وكان لهم فضل كبير في هذا الشأن في كل من إفريقية وأفريقية السوداء جنوب الصحراء ، وبعض مناطق الشرق الأقصى .

. . . إن المدقق في المصادر الفقهية الإباضية يجد أن أصحاب المذهب الإباضي من أكثر المسلمين اتباعاً للسنة الشريفة والاقتداء بها ، إما ما تلصقه بهم بعض المصادر من تهم فإنما هو ناتج عن أحد أمرين : الجهل أو التعصب .

الأصول التاريخية
للفرقة الاباضية[1]

بقلم : الدكتور عوض محمد خليفات
الجامعة الأردنية
عمان - الأردن

كانت مشكلة الخلافة أول مسألة اشتد فيها الخلاف بين المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ ، وخاصة أنه لم يرد في القرآن الكريم نص صريح يتم بموجبه اختيار رئيس الدولة ، كما أن الرسول عليه السلام لم يعين الشخص الذي سيتولى زعامة المسلمين بعده . وهكذا فقد وضعت وفاة الرسول ﷺ الأمة الاسلامية أمام مشكلة خطيرة ألا وهي مشكلة خلافة الرسول ﷺ وقيادة الأمة والاشراف على شؤونها من الناحيتين الدينية والدنيوية . أما الناحية الدينية فقد اكتملت قواعدها ورسخت جذورها ، وقد أكد ذلك قول الله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت

---

(1)الدكتور عوض محمد خليفات ، (أردني) الدكتور عوض محمد خليفات صاحب دراسات أكاديمية عن الإباضية تتميز بالتحليل العميق . وهو أستاذ بارز بجامعة عمّان . ورئيس قسم التاريخ ، ووزير للشباب ، سابقاً .

لكم الاسلام ديناً ﴾ . الا أن هذا الدين لا بد له من يحميه ويعمل على إنتشاره في مناطق جديدة لم تصل إليها الدعوة من قبل ، وخاصة أن الدين الاسلامي دين عالمي ليس مقصوراً على العرب وحدهم ولا محدوداً بالجزيرة العربية . ومن الناحية الدنيوية لا بد للأمة من قائد وزعيم يحافظ على المكتسبات التي أحرزتها الأمة في ظل الاسلام . وبعد مناقشات - وأحيانا مجادلات عنيفة - وقى الله الأمة شر الفرقة والنزاع واجتمعت كلمتهم على انتخاب أبي بكر الصديق أول خليفة للمسلمين . وقبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى عهد - بعد إستشارة كبار الصحابة الموجودين في المدينة - إلى عمر بن الخطاب . وبينما كان عمر بن الخطاب يصارع الموت ، بعد أن تلقى طعنات خنجر أبي لؤلؤة الفارسي المسمومة ، فكر في أمر الأمة من بعده وأستقر رأيه على أن يجعل أمر الخلافة شورى ، وقد حددها في ستة من الصحابة هم علي بن أبي طالب ، عثمان بن عفان ، طلحة بن عبيد الله ، الزبير بن العوام ، عبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص . وقد بين عمر أسباب اختياره لهؤلاء النفر من الصحابة حينما قال مخاطباً إياهم «إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذاالأمر إلا فيكم ، وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راض ... إني لا أخاف اختلاف الناس عليكم إن استقمتم ولكني أخاف عليكم اختلافكم فيختلف الناس» . وبعد مناقشات واستشارات دامت ثلاثة أيام بويع عثمان بالخلافة في ذي الحجة من عام 23 هـ . وفي عهده واجهت الأمة الاسلامية أخطر محنة مرت بها بعد حروب الردة ، وهو ما عرف في التاريخ باسم الفتنة .

كانت الفتنة في عهد الخليفة عثمان حدثاً خطيراً ساعد في ازدياد شقة الخلاف بين المسلمين حول منصب الخلافة . وقد أدت التطورات التي حدثت فيما بعد ، وخاصة النزاع بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، إلى بروز فرقة المحكمة أو الخوارج كما سماها أعداؤها والحرورية أو الشراة كما سموا أنفسهم .

انشقت هذه الجماعة على علي بن أبي طالب عندما أصر على إنفاذ التحكيم ، ونادت بإنتخاب خليفة للمسلمين عن طريق الشورى دون إعتبار للنسب القبلي أو الاصل العرقي . وكان المحكمة أول من تحدى سلطة قريش عملياً عندما انتخبوا عبدالله بن وهب الراسبي اماماً لهم ونادوا بقية المسلمين للانضمام إليهم . وبعد معركة النهروان ، واعتزال أفراد منهم أصحابهم توجهوا صوب البصرة حيث أخذوا يدعون لمذهبهم سراً خوفاً من بطش الولاة الأمويين . وقد تزعم هذا الفريق أبو بلال مرداس بن أدية التميمي ، وكونت هذه الجماعة البذرة التي أنتجت الفرقة الأباضية أو أهل الدعوة كما كانوا يسمون أنفسهم .

شهد أبو بلال ، زعيم هذه الجماعة المعلن ، معركة صفين مع علي ابن أبي طالب ، وأنكر التحكيم ، واشترك في معركة النهروان مع المحكمة ضد علي بن أبي طالب . ويبدو أنه لم يكن مرتاحاً لما حدث من خلاف وفتنة بين المسلمين ، وصعق لما حلّ بأقاربه وأقرانه من قتل وتشريد على يد إخوانهم في الدين ، ورأى أن القتال بين أتباع العقيدة الاسلامية السمحة بهذه الطريقة الشرسة أمر لا يصح . فانسحب مع نفر من أصحابه ، وأقام مع أبناء عمومته من قبيلة تميم . الذين كانوا يشكلون جزءاً هاماً من سكان البصرة آنذاك . وكان

يتزعم هـــذه القبيلـــة الأحنف بن قيس السعـــدى التميمي (ت 87 هـ/686 م) وينتمي إليهـا عـدد وافر من أبرز الشخصيـات السياسية والفكرية .

وفي ظل الحماية والترحاب اللذين لقيهما أبو بلال وأصحابه من الأحنف وقبيلته ، أخـذ مرداس ينشر آراءه وأفكاره مـؤثراً طريـق الاقنـاع والمنـاقشـة على الحرب والعنف . وأنكر قتـل المخـالفين واستعراض الناس على طريقة متطرفي الخوارج . ودعا أتباعه بأن لا يجردوا سلاحاً ولا يقاتلوا أحداً إلا إذا تعرضوا للعدوان وأجبروا على القتال . وبلغ من حسن سيرتـه أن عـدداً من الفرق والجماعـات الاسلامية فيا بعد ، كالشيعة والمعتزلة ، ادعت نسبتـه إليهـا واعتبرتـه واحداً من أبرز أتباعهـا . وقـد نشـط مرداس في البصرة لنشر دعوتـه وأفكاره . وكان يعقد المجالس والمناظرات لاقناع الناس بآرائه فـانضمّ إليه عدد كبير من النـاس وأخـذ عدد أنصاره يزداد ويتعـاظم حتى أنهم ابتنوا لهم مـسجداً خـاصـاً في البصرة . ويبـدو أن دعوتـه لاقت استجابـة كبيرة جعلت عبيـد الله بن زيـاد ، والي العراق ، يقول : «لكـلام هـؤلاء (مرداس وأتبـاعـه) أسرع إلى القلـوب من النـار إلى اليراع» . وانضم إلى هـذه المجموعـة الفقيـه المعروف جـابر بن زيـد الأزدى الـذي لم يلبث أن أصبح رئيس الجماعـة والمؤسس الحقيقي للحركـة وانضوى الجميع تحت امرتـه بما فيهم أبـو بـلال نفسـه ولكن جماعته آثروا أن لا يبيحوا باسمه ولا يعلنوا علاقته بـالحركـة حتى لا يبطش به الولاة .

نتيجة لهذا النجاح الذي أحرزه المحكمة القعدة اتبع والي العراق ، عبيد الله بن زياد ، سيـاسـة قـاسيـة تجـاههم ممـا اضطرهم للجوء إلى

السرية في نشر دعوتهم . وكانوا يقصدون إجتماعاتهم سراً للدعوة لمذهبهم والنظر فيما يعنيهم ويساعد على تحقيق أهدافهم . ولكن عبيد الله لم يغض الطرف عنهم ، وأخضعهم لمراقبة شديدة ، وكان يبث العيون والجواسيس لتعقبهم والقبض عليهم وزجهم في السجون . وكانت هذه الاجراءات الشديدة تقض مضاجعهم وتلقي الرعب في قلوبهم ، ولذلك فقد كانوا يأتون مجالسهم متنكرين متشبهين بالنساء لدفع الريبة عنهم وهم في طريقهم إلى أماكن اجتماعاتهم ، وكانوا أحياناً ينتحلون صفة التجار والباعة المتجولين حتى يصلوا مقصدهم . ولم يكتف ابن زياد بمطاردتهم والتنكيل بهم بل لجأ إلى أسلوب آخر يرمي إلى زرع الخلاف وزعزعة الثقة فيما بينهم ، آملاً في القضاء عليهم من الداخل نتيجة الانقسام والنزاع ، فقد كان يحبس الجماعة منهم ثم يأمرهم بقتل بعضهم بعضا ، ومن قتل زميلاً له عفا عنه وأخرجه من السجن . وحاول بأساليب مماثلة أن يزرع الفتنة بين العرب والموالي من القعدة وخاصة أن دعوة أبي بلال قد استهوت عدداً من الموالي الذين كانوا يقطنون البصرة فتبعوه واعتنقوا مبادئه .

نتيجة للاضطهاد الذي تعرض له القعدة في البصرة آثر أبو بلال الشراء وترك المدينة مرتحلاً إلى مكان آخر آملاً في أن يأمن شر ابن زياد وينشر آراءه ومذهبه بحرية أكثر ، وفي مناطق لم تصل إليها دعوته من قبل . فسار معه نحو أربعين رجلاً من أتباعه حتى نزلوا أسك ، وقد أعلن مرداس بأنه وأصحابه لن يخيفوا أحداً أو يجردوا سيفاً ولا يقاتلوا إلا من بدأهم بالعدوان . وعلى الرغم من ذلك فقد خشي ابن زياد نشاطه وانتشار دعوته فندب إليه الجيوش وأباده

وأصحابه في عام 61 هـ .

وبعد استشهاد أبي بلال بثلاثة أعوام (64 هـ) حدث إنقسام نهائي بين المحكمة فمال فريق منهم إلى التطرف بينما حبذ فريق آخر الاعتدال وانتهى هذا الخلاف الى انشقاق أيدي برز على أثره جماعة القعدة المعتدلة التي أثرت الهدوء والسير على نهج أبي بلال في عدم استعرض الناس ومهاجمتهم إلا دفعا لعدوان . وفي بداية الربع الأخير من القرن الأول الهجري إنقسم القعدة إلى فرقتين : الصفرية والاباضية .

سميت الأباضية بهذا الاسم نسبة إلى عبد الله بن أباض الذي تعتبره المصادر غير الأباضية مؤسس المذهب الأباضي . أما العلماء الأباضيون فينسبون إلى عبد الله بن أباض دوراً ثانوياً بالمقارنة مع جابر بن زيد الأزدى العماني الذي يعتبر ونه إمام أهل الدعوة ومؤسس فقههم ومذهبهم . ويجمع المؤرخون والمفكرون الأباضيون على أن عبد الله بن أباض كان يصدر في كل أقواله وأفعاله عن جابر ابن زيد .

ويبدو لي أن جابراً كان الامام الروحي وفقيه الاباضية ومفتيهم وكان بالفعل هو الشخص الذي بلور الفكر الأباضي بحيث أصبح متميزاً عن غيره من المذاهب ، بينما كان ابن أباض المسؤول عن الدعوة والدعاة في شتى الاقطار ولذلك سمته المصادر رئيس القعدة في البصرة وغيرها من الامصار . وتاريخ الدعوة الاباضية يشير إلى اشتراك بعض الأشخاص البارزين والمجتهدين في المسؤولية إلى جانب الامام

الأكبر لهم . وقد حدث مثل ذلك زمن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي الذي أناط المهام المالية والعسكرية والاشراف على سير الدعوة خارج البصرة إلى أبي مودود حاجب الطائي . ولما كان أبو عبيدة آنذاك معروفاً لدى الناس بأنه شيخ الأباضية وزعيمها في البصرة فإن المصادر لم تخلط بينه وبين حاجب الطائي كما فعلت مع جابر وابن أباض ، وذلك لأن جابرا كان قد أخفى معتقده واستعمل التقية الدينية فلم يخطر على بال أحد انه زعيم الأباضية ومؤسس مذهبها ، وخاصة أنه لم يكن معروفاً لدى البصريين إلا بكونه أحد التابعين المحدثين الثقات ومن أشهر فقهاء البصرة وعلمائها . والواقع أن جابراً كان ذا علاقة وثيقة بحركة المحكمة الأباضية منذ وقت مبكر وأصبح أحد مفكريها البارزين منذ بداية النصف الثاني للقرن الأول الهجري وقبل مقتل أبي بلال مرداس عام 61 هـ . وقد اكتسب ثقة أقرانه لعلمه ودينه فكانوا لا يصدرون في شيء الاّ بعد مشورته . ولكن ذلك قد خفي على مخالفيهم ولم يعرفوا له هذا الدور . ولذا نسبوا الفرقة الى ابن أباض وهو الشخص الذي قدموه لينـاظر أعداءهم ويتكلم باسمهم علنا . وكان بذلك هو المعروف لدى عامة الناس فغلب أسمه على من اتفق معه في الرأى . كما أن مراسلاته مع الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان قد أقنعت كثيرا من معاصريه بأنه هو إمام الأباضية ومؤسسها . ومن حق السامع أن يسأل لماذا لم يقم الامام الحقيقي ، جابر ابن زيد ، بالمراسلة مع الخليفة بدلاً من ابن أباض ؟ والجواب يكمن في تصميم أتباع الفرقة بأن تبقى الحركة سرية بقدر الامكان وأن يبقى اسم مؤسسها ومنظم دعوتها مستورا حتى لا يبطش به الأعداء

والولاة . وبذلك يقول الرقيشي « .. بلغنا أن أبا بلال مرداس بن حدير وغيره من أئمة المسلمين لم يكونوا يخرجون إلا بأمر إمامهم في دينهم جابر بن زيد العماني رحمه الله ، ويحبون ستره عن الحرب ، لئلا تموت دعوتهم ، وليكون ردءاً لهم» ويقول قاسم بن سعيد الشماخي : «كان (ابن أباض) المجاهد علناً ، المناضل علناً في سبيل تحقيق الحقائق ، وتصحيح قضايا العقول ، فيما أحدثه أهل المقالات والبدع من الزور والافتراء في شريعة ربنا ، وكان شديداً في الله تعالى ، وله مناظرات مع أهل التلطس والتفلسف . كان الحجة الدامغة التي يخنس أمامها كل ثرثار ، وله كلام مع عبد الملك بن مروان يهضم نفس كل حائر جبار ، تغلب على المسلمين ، أصحابه ، الذين يقولون بقولة الأباضية ، وتسمى المذهب باسمه على هذا المعنى . وإنما كان الامام القائد ، والوسيلة الراشد ، أس المذهب وحاميه ، مرجع الفضل في تدوينه وتشييد مبانيه ، إنما كان جابر ابن زيد رضي الله عنه». أما المؤرخ الأباضي المعاصر محمد علي دبوز ، فيرى أن الأمويين هم الذين أطلقوا عليهم هذا الاسم ، نسبة إلى عبد الله بن أباض لأن الأخير كان من علمائهم وشجعانهم والمناظر باسمهم . كما أن الأمويين لا يريدون نسبة هذه الفرقة إلى جابر حتى لايجذبوا إليهم الانظار ولا يبدون في هالة جابر المشرقة ، فتميل إليهم النفوس ، فنسبوهم إلى عبدالله بن أباض ، وهو أقل منزلة من جابر في العلم وإن كان لا يقل عنه في التقوى والورع والصلاح» . والدليل على صحة هذه الأقوال التي يوردها مؤرخو الأباضية ، أن أتباع الفرقة لم يطلقوا على أنفسهم هذا الاسم في تلك المرحلة . وكانوا يصفون أنفسهم باسم «المسلمين أو جماعة المسلمين أو أهل

الدعوة» . وإذا تفحص الباحث المصادر الأباضية الأولى فإنه لا يجد فيها هذا الاسم ، أي الأباضية ، بل غالباً ما يجد لفظ جماعة المسلمين أو أهل الدعوة للتدليل على اتباع الفرقة . وإذا رجعنا إلى هذه المؤلفات التي كتبها مشايخ الأباضية مثل مدونة أبي غانم الخراساني ، وكتاب الزكاة لأبي عبيدة والآثار الأخرى الباقية المنسوبة إلى جابر ابن زيد فإننا لا نعثر فيها على كلمة أباضية . ولكن يبدو أنهم مع مرور الزمن وإصرار مخالفيهم على تسميتهم بهذا الاسم قد قبلوا به وخاصة أنهم لم يجدوا فيه ما يؤذيهم أويسيء إلى سمعتهم . وقد ظهر لأول مرة في المؤلفات الأباضية المغربية في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري .

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن الآن هو : لماذا قدم الأباضية ابن أباض ليجادل باسمهم علناً ويناظر مناوئيهم ويكشف عن بعض مبادئهم في الوقت الذي كانت فيه الحركة تمر فيما عرف بطور الكتمان أو السرية التامة ؟ يبدو أن الأباضية في تلك المرحلة رأوا أنه لا بد لهم من الافصاح عن بعض آرائهم ومعتقداتهم وخاصة ما يتعلق منها بوجهة نظرهم نحو متطرفي الخوارج حتى لا يتعرضوا للسخط من بقية المسلمين الذين اعتبروا الخوارج المتطرفين ، مثل الأزارقة ، مارقين تجب محاربتهم والقضاء عليهم . ولذا كان لابد للقعدة الأباضية ممن يفصح عن رأيهم حتى لا توجه إليهم تلك الاتهامات التي وسم بها متطرفو الخوارج . وكان ابن أباض هو المؤهل للقيام بهذه المهمة الدعائية لأنه ، بالاضافة إلى قدرته في المناظرة والمجادلة ، ينتمي إلى قبيلة تميم ، إحدى أهم قبائل البصرة آنذاك ومن الصعب على الولاة أن يتعرضوا له بأذى خوفاً من إغضاب قبيلته .

ومن هنا وصف خلفاء بني أمية بالظلم والفساد ومخالفة المبادىء الاسلامية في مراسلاته مع عبد الملك بن مروان . ولم يخاطب عبد الملك نفسه بلقب أمير المؤمنين أو خليفة المسلمين بل خاطبه باسمه مجرداً من أي لقب . ورغم ذلك فإن عبد الملك لم يتخذ بحقه أية إجراءات . ولا تخبرنا المصادر عن توتر بين الطرفين وهذا دليل على أن ابن أباض الذي ينتمي إلى قبيلة تميم كان آنذاك يتمتع بحماية قبيلته مما جعل اضطهاده أمراً صعباً وخاصة أنه لم يحمل السيف ولم يجرد السلاح ضد الحكام الأمويين .

أما عن نشاط ابن أباض بعد مراسلاته مع عبد الملك بن مروان فلا تذكر المصادر معلومات موثوقة يمكن الاطمئنان إليها . ويبدو أنه لاقى حتفه بعد ذلك في وقت لا تحدده المصادر المتوافرة وإن كان من المؤكد أنه توفي قبل عام 100 هـ .

بعد إختفاء ابن أباض أقلع الأباضية عن المناقشة العلنية والجدل الكلامي مع مناوئيهم ومخالفيهم ولجأوا إلى السرية المطلقة في تنظيم دعوتهم وكان لجابر دور تنظيمي كبير في هذه المرحلة التي تعرف في التاريخ الأباضي بطور الكتمان . فمن هو جابر بن زيد ؟ وما هو دوره الحقيقي في نشأة الدعوة الاباضية ؟ هو أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي الجوفي البصري من قبيلة اليحمد الأزدية في عمان . وقد عرف بالجوفي نسبة إلى درب الجوف في البصرة حيث استقر مع أسرته فيما بعد .

ولد جابر في بلدة فرق بالقرب من مدينة نزوى في عُمان .

أما السنة التي ولد فيها فلا تعرف على وجه التحديد ، وتعطي المصادر تواريخ مختلفة إلا أنها كلها محصورةبين عامي 18 و 22 هـ

ولا تذكر المصادر المتوافرة أيضاً تاريخاً لقدومه إلى البصرة . ويبدو أنه جاء في وقت مبكرمن حياته طلباً للعلم حيث كانت البصرة آنذاك أهم مركز فكري في العالم الاسلامي . واستقر بين أقاربه من الأزد الذي سكنوا أحد أحياء البصرة .

وفي البصرة أخذ جابر يتزود بالعلم والمعرفة وخاصة ما يتعلق بعلوم القرآن والحديث وما يتصل بها . وقد تتلمذ جابر على أيدي كثير من الصحابة والتابعين وأخذ عنهم الحديث والتفسير وعلوم اللغة والأدب . ويروى عن جابر أنه كان يقول : «أدركت سبعين بدرياً فحويت ماعندهم إلا البحر» أي عبد الله بن عباس على أن الأخير لم يكن من أهل بدر . وفي القول دلالة على أن جابراً قد أخذ عن مجموعة من الصحابة الذين رافقوا رسول الله ﷺ ونقلوا عنه علمه وسنته الشريفة . ومن أهم العلماء الذين أخذ عنهم جابر : عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود وأنس بن مالك وغيرهم . إلا أنه كان أكثر ملازمة لعبد الله بن عباس من غيره وكان من أنجب تلاميذه . وكان عبد الله بن عباس يقول عنه : «لو أن أهل البصرة نزلوا عند قول جابر بن زيد لأوسعهم علماً في كتاب الله» . وفي رواية أخرى أنه كان يحيل سائليه إلى تلميذه جابر ويقول : «اسألوا جابر بن زيد ، فلو سأله أهل المشرق والمغرب لوسعهم علمه . وعندما كان يسأله أناس من أهل البصرة كان يبادرهم بقوله : «كيف تسألونني وفيكم جابر بن زيد (أو أبو الشعثاء) . وقد وصفه عبد الله بن عمر بن الخطاب بأنه من فقهاء أهل البصرة البارزين . بينما قال عنه قتادة بن دعامة السدوسي بأنه عالم العرب وأعلم أهل الأرض .

لم يكتف جابر بن زيد بعلم من التقى بهم في البصرة بل كان يرتحل إلى أماكن أخرى طلباً لمزيد من العلم ولا يترك فرصة يتزود فيها بالعلم إلا واغتنمها وكان يتردد على الحجاز ويلتقي بعائشة ، أم المؤمنين ، رضي الله عنها . ويأخذ عنها العلم . يسألها عن سنة الرسول الكريم ﷺ ويناقشها في كثير من المسائل مما يتعلق بحياة الرسول الخاصة آملا منه في أن يجعل من تلك السيرة قدوة لأصحابه ولمن طلب فتواه مدللاً على رأيه بأمثلة من سيرة النبي العظيم محمد ﷺ .

مما مر يتبين لنا بوضوح أن جابر بن زيد قد اكتسب علماً واسعاً بعد إقامته في البصرة وأنه أصبح من أبرز التابعين الأوائل في علم الحديث والتفسير والعلوم الدينية بشكل عام . وقد أهلته معرفته العميقة لأن يصبح أبرزمفت في البصرة . ومما يدل على طول باعه في ميدان الفتوى والاجتهاد أن عمرو بن دينار ، وهو أحد العلماء اللامعين في البصرة آنذاك وأحد التابعين من رواة الحديث ، كان يذكر جابراً بن زيد ويقول : «ما رأيت أحداً أعلم بالفتيا من جابر ابن زيد» أما اياس بن معاوية ، قاضي البصرة في عهد الخليفة عمر ابن عبد العزيز ، فكان يقول : «أدركت أهل البصرة ومفتيهم جابر ابن زيد من أهل عمان» . أما الحسن البصري فيثني على جابر وعلمه الغزير ويصفه بالفقيه العالم .

يكتف جابر بالرواية الشفوية عن أساتذته ومعاصريه ، بل كان يسجل الأحاديث التي سمعها من شيوخه كما سمح لتلاميذه بتسوين الأحاديث التي رووها عنه . وقد ألف كتاباً سماه الديوان ضمه الأحاديث التي رواها وأودع في صفحاته آراءه وفتاويه في

كثير من أمور العقيدة . ويقال أن ديوانه كان من الضخامة بحيث يعجز عن حمله البعير ، ويقع في عشرة أجزاء كبيرة . وكانت نسخة منه موجودة في إحدى مكتبات بغداد الكبرى في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد . ويذكر المؤلف الأباضي ، الوسياني ، أن نسخة من الديوان قد بقيت ، بعد موت جابر في حوزة خليفته أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي ثم توارثها أئمة الأباضية في البصرة حتى انتهت إلى محمد بن محبوب بن الرحيل ، ولد آخر الأئمة الاباضية في البصرة . وفي عهده استنسخت المخطوطة في مكة . ولكن المؤلف لم يذكر اسم الناسخ ولا الهدف من نسخها . وربما قام بهذا العمل جماعة من أباضية شمال افريقية وخاصة أن هناك معلومات تشير إلى وجود نسخة من الديوان في شمال افريقية في وقت مبكر . ويروى أن أحد علماء الأباضية من جبل نفوسة في ليبيا ويدعى النفاث فرج بن نصر - وهو مؤسس الفرقة النفاثية الأباضية - استطاع أن يحصل على نسخة كاملة من ديوان جابر بن زيد وأتى به إلى جبل نفوسة . ولما كان نفاث عدواً للامام الرستمي في تاهرت ولعامله في جبل نفوسه فقد دمّر المخطوطة حتى لا يستطيع مناوئوه الحصول عليها أو استنساخها .

ويبدو أن جابر بن زيد قد اتبع أسلوباً خاصاً في البصرة مما ساعده على اكتساب المعارف والاحاطة بالعلوم السائدة في عصره وخاصة العلوم الدينية . فقد عاش حياة زهد وتقشف وانصرف عن لهو الدنيا وترفها . وكان يقول : سألت ربي عن ثلاث فأعطانيهن . سألت عن زوجة مؤمنة . وروحة صالحة ورزقاً كفافاً يوما بيوم . وكان يخاطب أصحابه ويقول : ليس منكم رجل غنى

مني . ليس عندي درهم وليس عليّ دين» . ويذكر ابن سيرين أن أبا الشعثاء جابر كان مسلماً عند الدينار والدرهم . أي أنه كان ورعاً تقياً لا يهتم بجمع المادة واكتنازها . والواقع أن المصادر السنية والأباضية تسهب في الحديث عن زهد جابر وانصرافه إلى الدرس ولتحصيل حتى أصبح ، بعلمه ، مرجعاً لكل سائل في أمور الفتيا والفقه الإسلامي . وكان بعض الناس ممن يسكنون خارج البصرة يكتبون إليه مستفسرين عن مسائل ومشاكل فقهية فيجيبهم عليها . وتبعاً لذلك فقد وصفه معاصروه بأنه .. «بحر العلم وسراج الدين» .

مما تقدم ، يظهر لنا بوضوح أن جابراً قد اكتسب علماً غزيراً بعد هجرته إلى البصرة . وأصبح من الفقهاء البارزين الذين أسدوا خدمات جليلة للعقيدة والفكر الاسلاميين . ولا شكّ أنه وظف علمه ومواهبه في خدمة مبادئه التي آمن بها واقتنع بصحتها . ولكي نفهم دوره في نشأة الفرقة الأباضية وتطورها لا بد لنا من التعرّف على بدء علاقته بجماعة القعدة ثم جهوده المتواصلة في سبيل إنجاح الدعوة الأباضية بعد أن أصبح رئيسها وزعيمها .

لسنا نعرف على وجه التحديد متى بدأت علاقة جابر بن زيد بالقعدة على الرغم من أن المعلومات التي توردها المصادر الأباضية تشير إلى قدم هذه العلاقة وإلى أن جابراً قد انضمّ إلى الحركة في وقت مبكر .

أما ما يورده بعض مؤرخي الأباضية المحدثين من أن جابن بن زيد كان زعيم الحركة بعد وفاة عبد الله بن وهب الراسبي مباشرة . فيصعب تصديقه ، لأن جابراً أنذاك كان لا يزال شاباً صغيراً يتراوح

عمره بين السادسة عشرة والعشرين سنة فقط . ومن غير المحتمل أن يكون في هذا السن قد اكتسب العلم اللازم والخبرة الضرورية ليقدمه أصحابه زعيماً ومرشداً لهم . أضف إلى ذلك أننا لا نملك أي دليل على أن جابر بن زيد كان ذا علاقة مباشرة مع عبد الله بن وهب الراسبي أو أنه اشترك في معركة النهروان التي استشهد فيها الراسبي . ولا تشير المصادر الى أي نشاط لجابر بن زيد بالاباضية قد بدأ بعد النهروان وبعد لجوء مرداس بن ادية التميمي وأصحابه للبصرة في أواخر العقد الثالث من القرن الأول الهجرى . ويستنتج من المعلومات الواردة في المصادر الأباضية المتوافرة أن جابر بن زيد قد انضّم إلى القعدة إبّان ولاية عبيد الله بن زياد للعراق (56 - 64 هـ) ، أي في بداية النصف الثاني من القرن .

بالاضافة إلى ما سبق فإن الروايات الأباضية تشير إلى علاقات متينة وودية بين جابر بن زيد وأبي بلال مرداس بن أدية التميمي ، شيخ القعدة في البصرة بعد معركة النهروان . وكان الرجلان يخرجان إلى مكة سوياً ويلتقيان بابن عباس وعائشة أم المؤمنين . ويذكر أبو سفيان محبوب بن الرحيل ، أن جابر بن زيد وأبا بلال مرداس دخلا مرة على عائشة رضي الله عنها فعاتباها على ما كان منها يوم الجمل . قال : فاستغفرت الله تعالى وتابت مما كانت قد دخلت فيه . ويبدو أن العلاقات بين الرَّجلين كانت تزداد وتتوثق بسرعة . وأخذ مرداس يدرك مدى علم جابر وذكائه فكان يتردد عليه أناء الليل وأطراف النهار ليعرف من معرفته الواسعة وعلمه الغزير . وذكر مؤلف كتاب بيان الشرع عن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي أنه قال : لقد كان أبو بلال رحمه الله يبكي في جوف

الليل حتى ما يطيق أن يقوم . ولقد كان من تشوقه إلى إخوانه أنه يخرج من عند أبي الشعثاء جابر بن زيد بعد العتمة ، ثم يأتيه قبل الصبح فيصلي معه .

مما مريتبيّن لنا أن جابر بن زيد كان قد انضم إلى القعدة منذ أيام عبيد الله بن زياد ولكن الباحث لا يستطيع أن يقرر سنة بعينها لتاريخ ذلك الانضمام . ويبدو من الروايات أن نجم جابر أخذ يتألق في سماء تلك الحركة قبل عام 61 هـ وهو العام الذي قتل فيه أبو بلال مرداس بن أدية التميمي ، حتى أن بعض الروايات تجزم على أن أبا بلال لم يقم بعمله إلا بعد مشورة من جابر بن زيد وقبول منه . وإذا صحت هذه الروايات فإن القعدة قد اتفقوا على أن يتولى جابر بن زيد أمرهم وتنظيم دعوتهم منذ المراحل الأولى لتطور الدورة في البصرة إيماناً منهم بذكائه واعتماداً منهم على اطلاعه الواسع وتحصيله العميق في العلوم الدينية وخاصة ما يتعلق بالتفسير وعلم الحديث . ولعل ذلك كان السبب في اعتراف أبي بلال له بالزعامة قبل وفاته حتى أنه لم يصدر في عمله إلا بأمر جابر ومشورته . وكان لجابر بن زيد دور كبير في تنظيم الحركة وتطورها وقد ارتكزت سياسته إبان زعامته للفرقة الأباضية على قواعد أساسية يمكن إجمالها بما يلي :

1 - أن جابر لم يشأ الانسحاب من المجتمع الاسلامي الذي يعيش فيه مع بقية أتباع حركته . ولذا فإنهم لم يعزلوا أنفسهم عن الناس ولم يدعوا للخروج والهجرة كما فعل الأزارقة وغيرهم من متطرفي الخوارج . وكان جابر ينشر آراءه ويبث أفكاره بين الناس من خلال أحاديثه الدينية وفتاويه وأجوبته على المستفسرين عن

بعض الأمور الدينية من داخل البصرة وخارجها . وكان يتفحص تلاميذه فمن وجد فيه استعداداً قوياً لآرائه وحماساً لمبادئه دعاه إلى مذهبه . ولكن ذلك يحدث بسرية تامة مستعملاً في سبيل الوصول إلى هدفه التقية الدينية . وإمعاناً في كتمان أمر دعوته فقد كان يأمر أتباعه بقتل كل من يكشف أسرار الجماعة أو يبوح بأسمائهم فإن حدث أن ترك أحد أتباع الفرقة مذهبه وتخلى عن مبادئه دون أن يطعن في أصحابه القدامى أو يفشي أسرارهم فكان الأباضية يتبرأون منه ولكن دون أن يتعرضوا له بأذى معتبرينه واحداً من المخالفين الموحدين الذين لا تحل دماؤهم إلا إذا بدأوهم بالعدوان . ولكن إذا خرج من مذهب المسلمين (الأباضية) أحد وعاب عليهم وطعن في معتقدهم وأفشى أسرارهم فقد وجب قتله وأحل دمه . وقد اعتبرت سياسة جابر في هذا الشأن قدوة لمن جاء من الأئمة ، واعتبروا الإغتيال لمن يسيء إليهم أحد دعامات نشاطهم «وأحلوا الدماء بالظلم والابتداء به» .

2 – تجنب جابر أي احتكاك معاد مع السلطة . ولم يؤثر عنه أنه تعرّض لأذى قبل تولي الحجاج للسلطة في العراق على الرغم من أن بعض أصحابه قد لقي عنتاً كبيراً على يد الولاة منذ أيام ابن زياد . وتشير المصادر الأباضية إلى أن العلاقة بين جابر بن زيد والحجاج كانت في البداية ودية . وكان جابر يزور الحجاج ويتردد عليه حتى بعد أن نقل الحجاج مقره إلى مدينة واسط . وكان ليزيد ابن أبي مسلم ، كاتب الحجاج ، دور ملموس في هذه العلاقة لأنه كان صديقاً حميماً لجابر .

وقد أراد الحجاج أن يوليه القضاء فرفض متذرّعاً بعدم مقدرته

على حمل أعباء هذا المنصب وقال : «اني أضعف من ذلك ، قال (الحجاج) وما بلغ ضعفك ؟ قال : يقع بين المرأة وخادمها شر فما أحسن أن أصلح بينهما . قال ان هذا لهو الضعف» . وفي هذه الرواية دلالة على أن جابراً كان يريد اخفاء مقدرته وابداء ضعفه للوالي حتى يبعد الشبهات عنه ، وحتى لا يخطر ببال الوالي أن رجلاً بلغ هذه الدرجة من الضعف يمكنه أن يقوم بتأسيس حركة سرية مناوئة للحكم .

3 - لما كان جابر بن زيد ينتمي إلى قبيلة الأزد ، فقد وجّه قسماً كبيراً من جهوده نحو إقناع بعض أفراد هذه القبيلة للانضمام إلى حركته . وقد نجح إلى حد بعيد في هذا الشأن وتبعه عدد كبير من الأزد وعلى رأسهم بعض أفراد الأسرة المهلبية - زعيمة أزد العراق - وأصبح بعضهم من دعاة الفرقة وحماتها البارزين . ولم يقتصر ذلك على الرجال بل تعداه أيضاً إلى النساء . وتورد المصادر الأباضية عدداً من النساء المهلبيات اللاتي انضمن إلى جماعة المسلمين (الأباضية) وبذلن جهوداً في سبيل نصرتها واعطين بسخاء من أموالهن لبيت مال الدعوة ولمساعدة المحتاجين من أتباعها . ليس هذا فحسب بل أن المصادر تشير إلى أعداد كبيرة من عمان ، موطن الأزد الأصلي ، وحضرموت واليمن إنضمت إلى الأباضية . ولم تعد الحركة مقصورة في معظم أفرادها على العنصر القبلي التميمي كما حدث بعد معركة النهروان . ولا عجب أن نجد أول إمامه أسسها الأباضية كانت في حضرموت واليمن وعمان .

ونتيجة للجهود التي بذلها جابر بين أقاربه من الأزد بوجه خاص وعرب الجنوب عامة فقد أصبحت الحركة تضم عناصر من

قبائل عربية مختلفة كما انضم إليها كثير من الموالي . ولم يمت جابر ابن زيد إلاّ وقد غدت الدعوة الأباضية عبارة عن حركة اسلامية شاملة اجتذبت عناصر مختلفة من قبائل وأجناس متعددة . وأخذت القناعات المذهبية لدى كثير من أتباع الدعوة تحل محل الولاءات القبلية والعرقية . ولم تقتصر دعوة جابر على من كان موجوداً في البصرة بل تعدتها إلى الأمصار الاسلامية الأخرى حيث كان يبعث بالدعاة لمختلف المناطق وكان عمله هذا إرهاصاً لما تم في عهد خلفه أبي عبيدة من تدريب للدعاة الذين عرفوا باسم حملة العلم إلى الأمصار . وكان جابر على صلة وثيقة مع أتباع دعوته في الولايات المختلفة ومن بينهم أناس من الأزد والمهالبة . وتشير المصادر إلى مراسلات متبادلة بينه وبين عبد الملك بن المهلب في خراسان . وكان جابر يطلب منه أن يكتب له في أمر الدعوة ويسأله أن يرسل خطاباته في سرية تامة مع أشخاص موثوقين . والواقع أن جابر كان يكرر الطلب في وجوب السرية في جميع مراسلاته مع أعوانه وأتباعه ، ويطلب أحياناً تمزيق رسائله إليهم وحرقها حتى لا تصل إلى أيدى أعدائهم فتؤدي بالتالي إلى كشف تنظيمهم وإجهاض حركتهم . وقد استطاع جابر بهذه السياسة أن يتجنب تنكيل الولاة به وباصحابه لفترة طويلة واستطاع أيضاً أن يكسب عدداً من الأتباع ممن تولوا فيما بعد مركز المسؤولية (بالطبع دون علم السلطات بمعتقدهم) وكانوا يستعينون بآراء إمامهم جابر في تسيير الادارة والاعمال في المناطق الخاضعة لنفوذهم . ومن بين هؤلاء الأشخاص النعمان بن مسلمة الذي أرسل إلى جابر يسأل عن كيفية جمع الجزية في منطقته . ولا تذكر المصادر المتوافرة أين كان النعمان

والياً (أو عاملا) ولكن ورود كلمة دهقان في الرسائل المتبادلة بينه وبين الامام جابر تدل على أنه كان والياً في المناطق الشرقية وربما في خراسان . ومن الشخصيات الأخرى التي كانت على صلة وثيقة بجابر بن زيد ، يزيد بن يسار الذي كان يقطن عمان ويدين بالمذهب الاباضي ، وقد عين عاملاً في إحدى مناطق عمان فأرسل إلى جابر يستشيره في ذلك ويطلب نصائحه وإرشاداته .

وتبعاً لذلك فقد وجد كثيرون خارج البصرة كانوا على علاقات حميمة مع جابر يدينون بمذهبه ويصدرون عن أمره ، وكانوا عيوناً له وممثلين في المناطق التي يسكنونها . ونظراً للدقة في التنظيم والحذر الشديد فلم يستطيع الولاة القبض على هؤلاء الدعاة والأشخاص . وكان وجود بعضهم في مركز المسؤولية دليلاً واضحاً على عدم معرفة الولاة بمعتقداتهم ، وكان أيضاً دليلاً على أن جابراً لم يمانع في أن يستلم بعض أتباعه عدداً من المراكز والمهام الرسمية في جهاز الدولة – التي يعمل ضدها في النهاية – حيث كان يرى أن هؤلاء يسهمون في توفير مناخ مناسب لنشر دعوته في تلك الأمصار والولايات ويشكلون دعامة لها . ويبدو أن هذه العلاقات الواسعة والاتصالات الدائمة مع أتباع الحركة في البصرة وخارجها قد وصلت إلى أسماع الحجاج ، فأخذ يرتاب من جابر بن زيد وجعله تحت مراقبة دائمة ولكن علاقات جابر مع كاتب الحجاج ، وعدم وجود قناعة واضحة لدى الحجاج بنشاط جابر أدى إلى عدم اتخاذ إجراءات شديدة ضد الإمام جابر في البداية . ولكن التطورات السياسية التي حدثت في بلاد المشرق في العقد الثامن من القرن الأول الهجري قد أدت إلى تغيير جذري في موقف الحجاج من جابر بن زيد

وأتباعه ، فقد ثار أزد عمان بزعامة سعيد وسليمان أولاد عباد بن الجلندى ، وأرسل الحجاج حملات عدة لقمع الثورة وباءت جميعها بالفشل . وفي تلك الأثناء قامت ثورة ابن الأشعث عام 81 هـ/700 م فأجل الحجاج معالجة الموقف في عمان ليتفرغ لقتال ابن الأشعث . وبعد القضاء على ثورة ابن الأشعث وجه الحجاج جيشاً كبيراً إلى عمان بقيادة القاسم المزني ولكن الأزد بقيادة الأخوين ، سعيد وسليمان ، تمكنوا من دحر هذه الحملة وقتل قائدها . وعندما وصلت أنباء فشل الحملة إلى الحجاج غضب كثيرا ، وقرر الانتقام من الازد ليس في عمان فحسب بل في العراق أيضا . فوضع زعماء الأزد في العراق ومن بينهم جابر بن زيد ،، تحت مراقبة شديدة ، وحذّرهم من أي اتصال مع إخوانهم في عمان ، وكتب إلى عبد الملك بن مروان في الشام يخبره بتضييقه على أزد العراق وأنه أقعد وجوه الأزد الذين كانوا في البصرة عن النصرة لسليمان بن عباد . ثم بعث جيشاً بقيادة مجاعة المزني ، أخي القاسم على رأس أربعين ألفاً من النزاريين لاخماد ثورة الأزد . وقد سلك نصف هذا الجيش طريق البحر بينما سلك النصف الآخر طريق البر . وقد تمكن سليمان بن الجلندى من هزيمة الجيش البرى الذي يبدو أنه وصل مبكراً ولم ينتظر وصول القوة البحرية لتشترك الفرقتان في مهاجمة الثوار في آن واحد وطبقاً لخطة عسكرية واحدة . وأثناء ذلك وصل الجيش البحرى وعلى رأسه مجاعة نفسه ، وتمكن من هزيمة سعيد بن الجلندي الذي بقي في جزء صغير من الأزد يراقب السواحل بينما كان معظم الجيش العماني الأزدى يرافق أخاه سليمان الذي هزم الجيش البرى الذي أرسله الحجاج . اضطر

سعيد بن الجلندى للانسحاب إلى الداخل والالتجاء إلى الجبال، ولما علم أخوه سليمان سار إليه محاولاً فك الحصار عنه ومحاربة مجاعة ومن معه من الجند . وقبل أن يشتبك مع مجاعة أحرق السفن التي جاءت بهم من العراق . ثم سار إلى مجاعة وتمكن من هزيمته وارتد مجاعة هارباً والتجأ إلى جلفار ، وكتب إلى الحجاج يستمده فأرسل له خمسة آلاف جندى من أهل الشام بقيادة عبد الرحمن بن سليمان . وتمكن مجاعة بمساعدة القوة الشامية من هزيمة الأخوين سعيد وسليمان ومن معهما من الأزد . ودخل مجاعة ونكّل بالأزد وأوقع فيهم الذل والهوان ، مما كان له أبعد الأثر في موقف أزد العراق ، حلفاء الأباضية الذين يتزعمهم جابر الأزدي ، تجاه الحجاج والسلطة الأموية . فغضبوا لما حل بابناء قبيلتهم في عمان واعتبروا الحجاج مسؤولاً عما حدث فسخطوا عليه وتمنوا زوال حكمه . وفي الوقت الذي كانت تجرى فيه هذه الحوادث التي أدت إلى توتر العلاقات بين الأزد والحجاج قام الأخير باشعال النار في الهشيم فتنكر لآل المهلب ، زعماء أزد العراق وخراسان ، وطلق الحجاج زوجته التي كانت اختاً ليزيد بن المهلب والي خراسان آنذاك . وأخذ يكيد له ويحرض عبد الملك بن مروان ضده ، ونجح في إقناعه بعزل يزيد من ولاية خراسان وبالسماح له في معاقبته وتعذيبه . فزجّ الحجاج بيزيد وبعض أفراد أسرته في السجن وأساء إليهم ممازاد في إغضاب أزد العراق والبصرة . وكان لموقف الحجاج هذا أثره على الدعوة الأباضية التي يتزعمها الامام جابر بن زيد ازدي البصري فقد استغلّ جابر فرصة الكراهية بين الأزد والحجاج لاقناع كثير من الأزد بالانضمام إلى أهل الدعوة . وبالفعل تبعه قسم كبير منهم وعلى

رأسهم أفراد من آل المهلب ، رجالاً ونساء ، منهم عاتكة بنت المهلب ، أخت يزيد ، التي كانت من أشد الناس حماساً للمذهب ولم تبخل بمالها لمساعدة المحتاجين من أهل دعوتها . وكان لهذه التطورات أثرها الكبير في موقف الحجاج من جابر وأتباعه . وقد حبس جابراً مع بعض أصحابه البارزين مثل ضمام بن السائب وأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي وصحار العبدى وغيرهم . ولم يلبث الحجاج أن أطلق سراح جابر ونفاه مع رجل من مشايخ الدعوة يدعى هبيرة وهو جد أبي سفيان محبوب بن الرحيل المؤرخ الأباضي وآخر الأئمة الأباضيين في البصرة . ومن المحتمل إن الافراج عن جابر كان بشفاعة من صديقه الحميم ، يزيد بن أبي مسلم ، كاتب الحجاج . ولا شك أن نفي جابر إلى عمان كان ذا نتيجتين : الأولى أنه حرم أتباع الحركة في البصرة من إمامهم وزعيمهم فخلدوا إلى الدعة والهدوء . بينما بقي زعماؤهم ومشايخهم في سجن الحجاج حتى مات الأخير عام 95 هـ . والثانية أن الفرصة كانت مؤاتية لأن يقوم جابر بالدعوة إلى مذهبه في موطنه الأصلي ، عمان ، أي بين أهله وعشيرته الأقربين الذين يعرف عاداتهم وتقاليدهم وكيفية التعامل معهم ، مستغلاً في ذلك كرههم للحجاج وحقدهم عليه لما حل بهم خلال ثورة أولاد الجلندى التي أخمدها الحجاج . ولا يراودنا شك في أن وجود جابر مع بعض رفاقه في عمان قد أفاد الدعوة الأباضية وساعد على سرعة انتشارها في هذا القطر . وكانت جهوده مقدمة لنشاط حملة العلم الذين بعث بهم ، فيما بعد ، خليفته أبو عبيدة مسلم ابن أبي كريمه التميمي . ولا تشير الروايات الى تاريخ محدد لنفي جابر إلى عمان كما أنها لا تذكر المدة التي قضاها في منفاه ، ولكنها

تجمع على أنه عاد إلى البصرة ومات فيها . وتختلف المصادر حول تاريخ وفاته ، إذ يذكر بعض الرواة أنه توفي نفس الأسبوع الذي توفي فيه أنس بن مالك . وقد توفي الأخير في عام 93 هـ/711 م . ويرى البعض الآخر أنه توفي عام 103 هـ/721 م . أما الديثم بن عدى فيضع تاريخ وفاته عام 104 هـ/722 م . بينما يضعه الشماخي عام 96 هـ/714 م . ويبدو أن الرأى الأول هو الأصح لأنه جاء على ألسنة رواة الحديث الذين يهتمون إلى حد كبير بحياة كل محدث وتاريخ وفاته . وكان جابر أحد هؤلاء المحدثين . أضف إلى ذلك فإن المصادر تشير إلى أن جابراً استدعى الحسن البصري إليه وهو على فراش الموت وكان آنذاك مستخفياً من الحجاج الذي مات عام 95 هـ . ومعنى هذا أن جابراً توفي قبل هذا التاريخ . والأرجح أن تاريخ وفاته عام 93 هـ/ 711 م كما أشرنا قبل قليل . وخلفه في زعامة الدعوة أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي .

تبوأ أبو عبيدة زعامة أهل الدعوة بعد موت الحجاج عام 95 هـ وخروجه من السجن ، واتفق ذلك مع بداية حكم الخليفة سليمان بن عبد الملك (96 هـ/715 م - 99 هـ/717 م) . وكان الخليفة على علاقة وثيقة مع المهالبة ، زعماء الأزد ، الذين انضموا إلى الحركة الأباضية بأعداد وفيرة إيمان إمامة جابر بن زيد الأزدى . ومن المحتمل أن الأباضية لم يلاقوا عنتاً خلال فترة سليمان بن عبد الملك لذي عين زعيم الأزد ، يزيد بن المهلب والياً على العراق وخراسان . ولا تذكر المصادر الأباضية المتوافره أية علاقات عدائية بين الخلافة وأتباع الأباضية خلال هذه الفترة . ولعل السبب في ذلك يعود إلى حماية يزيد بن المهلب لهم نتيجة العلاقات التي تربط الأزد وآل

المهلب بهذه الحركة ، وخاصة إذا تذكرنا أن كثيراً من زعماء المهالبة ومن بينهم عاتكة أخت يزيد وأخيه عبد الملك كانوا من بين أتباع تلك الدعوة .

وعندما توفي سليمان بن عبد الملك وارتقى عمر بن عبد العزيز عرش الخلافة (99 هـ/717 – 101 هـ/720 م) ، سجن الأخير يزيد ابن المهلب لاتهامه إياه بعدم تسليم خمس الغنائم التي حصل عليها أثناء حملته في جرجان وطبرستان زمن الخليفة سليمان بن عبد الملك . وقد بقي يزيد في السجن طيلة حكم عمر بن عبد العزيز كما قام والي العراق بسجن أخوته وبعض أقاربه في البصرة . ولكن هذه الحادثة لم تؤدّ إلى توتر في العلاقات بين أتباع الدعوة الأباضية والخليفة عمر بن عبد العزيز . والحقيقة أن هذا الخليفة حاول أن يحل مشاكله مع أحزاب المعارضة ومن بينهم الاباضية بالطرق السلميّة مفضلاً الحوار والمناقشة على النزاع والحروب ويبدو أن أبا عبيدة ومشايخ الأباضية في البصرة كانوا يأملون خيراً من عمر بن عبد العزيز وحاولوا التوصل إلى تفاهم معه حول قاعدة مشتركة بين الطرفين ، فأرسلوا إليه وفداً على رأسه جعفر بن السماك أحد أبرز مشايخ الأباضية في البصرة آنذاك محاولين استمالته إلى جانبهم وإقناعه بصحة معتقدهم . وعلى الرغم من عدم وصولهم إلى نتيجة حاسمة معه في هذا الشأن إلا أن الوفد قد رجع راضياً عن سياسته وسلوكه . وتذكر بعض المصادر الأباضية أن الوفد استطاع أن يستميل ابن الخليفة عبد الملك . واعتنق المذهب الأباضي .

أثناء هذه الفترة من العلاقات السلمية . وأحياناً الودية ، بين الأباضية والسلطة الحاكمة والتي امتدت خلال حكم الخليفتين سليمان

ابن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز ، استغل أبو عبيدة ومشايخ الدعوة في البصرة هذه الفرصة لالتقاط أنفاسهم وتنظيم حركتهم على أسس متينة من أجل الوصول إلى هدفهم الأسمى وهو تأسيس إمامة الظهور وانتخاب خليفة للمسلمين من بين أتباع الدعوة . وقام أبو عبيدة بتطوير تنظيمات المجالس السرية وأعمالها التي كانت تقام في البصرة وتضم مشايخ الدعوة وأتباعها حيث يتداولون فيها خططهم ويتعلمون فيها مبادىء عقيدتهم وما يمت إلى دعوتهم بصلة سواء في النواحي الدينية أو الدنيوية . والحقيقة أن هذه المجالس السرية كانت موجودة منذ زمن مرداس ابن أدية التميمي الذي تزعم حركة القعدة بعد النهروان ، أي في أيام زياد بن أبيه وابنه عبيد الله . وتذكر الروايات أن عروة بن أدية ، أخا مرداس ، قد قبض عليه وهو مختبىء في سرداب سري تحت الأرض حيث كان يتعبد مع أصحابه . ويذكر المؤرخ الأباضي ، أبو سفيان ، أمثلة أخرى تدل على وجود مثل هذه المجالس السرية في زمن مبكر من عمر الدعوة . منها ما يقوله : «حدثني يسار وهو من خيار من أدركت عن والدته ، وهي بنت ثمانين سنة . قال : أدركت أخوين من بني راسب يقال لأحدهما تبرح والآخر مازن ابنا كنان . وكانا من خيار من مضى من أهل هذه الدعوة . وكانا نظيرى أبي بلال وأخيه عروة رحمهم الله ، وكانا في زمانها . فأما تبرح فكان عابداً مصلياً لا يفتر من العبادة حتى دبرت ركبتاه ويداه ورجلاه وجبهته كدبر البعير . وكان قد اتخذ سرباً في الأرض يعبد الله فيه مع أصحابه» .

وعلى الرغم من وجود هذه المجالس السرية منذ الأيام الأولى لقيام حركة القعدة فإن الفضل يعود للامام أبي عبيدة في توضيح

معالم هذه المجالس وتصنيف وظائفها وترتيب طبقاتها . ويمكن أن نميز بين ثلاثة أنواع من المجالس السرية كانت موجودة زمن أبي عبيدة التميمي .

النوع الأول : المجالس العامة وهي التي لم تكن مقصورة على جماعة معينة بل أن دخولها مباح لأي شخص من أهل الدعوة . وكان الأعضاء يرتادون هذه المجالس ألتي تعقد سراً في بيت أحد المشايخ وفي سراديب أرضية خاصة أعدت لهذا الغرض . وفي بعض الأحيان كانوا يعقدون هذه المجالس في بيوت النساء العجائز أو في بيوت الكرائين تجنباً للشبهات وإمعاناً في الحيطة والحذر . ولم يكن لهذه المجالس العامة برنامج معين أو خطة واحدة . بل كان الأعضاء يجتمعون في المجلس ويتلقون دروساً في العقيدة وإرشادات من كبار المشايخ الذين كانوا يقومون بالقاء الخطب الواحد تلو الآخر حول موضوع معين أو مواضيع مختلفة . وتشبه خطبهم ما هو معروف عن خطب صلاة الجمعة في المساجد ولكنها من جهة أخرى تختلف عنها في أن المجتمعين قد يتلقون أوامر يجب التقيد بها ولم تقتصر على الخطب الوعظية والدروس الدينية كما هو الحال في خطب الجمعة أو الأعياد الدينية . وكان المتحدثون يتكلمون بصوت منخفض حتى لا يسمعهم الجيران أو المارة .

وكانوا يعينون أشخاصاً منهم لمراقبة الأحياء والطرق المؤدية إلى مكان الاجتماع . حتى لاتداهمهم الشرطة على غفلة أو يعلم باجتماعهم أحد من المخالفين المناوئين للحركة . وبينما كانوا مجتمعين ذات مرة جاءتهم العيون تخبرهم بأن الشرطة في طريقها إلى الحي الذي اجتمعوا فيه ، ففضوا الاجتماع وتفرقوا . وكانوا آنذاك مجتمعين في بيت

متواضع تملكه امرأة مسنة . يقول أبو سفيان : «وما بلغنا أنه ظفر بهم في مجلس قط إلا أنهم كانوا ذات مرة أتاهم الخبر بأن الخيل تريدهم . فخرجوا مسرعين ، وتركوا نعالهم على باب البيت الذي كانوا فيه . فجاء الشرط فنظروا إلى النعال ، فقالوا للعجوز صاحبة البيت : ما هذه النعال ؟ فقالت : مكاتب لنا يسأل الناس فيعطى النعال وغيرها ، قالوا بالله ما ذلك كما ذكرته ، فإن هذا موضع ريبة . قال : فقال بعضهم : قد ذكرت العجوز ما ذكرت ، فلا تعرضوها للبلاء ، فلعلها أن تكون صادقة ، قال : فعافاها الله منهم» .وعلى أي حال فإن الأباضية لم يتركوا وسيلة لاخفاء تنظيمهم إلا واتبعوها وكانوا يتخذون كل الاجراءات الممكنة لمنع تسرب أية معلومات عن مجالسهم أو أماكن انعقادها . كما كانوا يذهبون لحضور هذه المجالس متنكرين على هيئة النساء أو الباعة المتجولين . يقول أبو سفيان : «كانوا يأتون المجالس في هيئة النساء في النهار ، وغير ذلك يتشبهون بالنساء ... وإن كان أحدهم ليحمل على ظهره جرة ماء ، أو يحمل حملة متاع كأنه بيّاع حتى يدخل المجلس . ليس هذا فحسب بل أن مشايخ الأباضية كانوا يحذرون أتباعهم من العيون والجواسيس ويوصونهم بطرد أي شخص يشكّون في أمره» . ويؤثر عن أبي مودود حاجب الطائي أنه كان يخاطب أتباعه ويقول : «إذا كان أحد يعيب عليه المسلمون (الأباضية) في خلافهم في الدين وأراد أن يشغب عليهم ويفتق بينهم فاهجروه ولا تحضروه مجالسكم وأعْلِمُوا الناس به ليكونوا منه على حذر» . ونتيجة لهذه الوسائل والاجراءات الحذرة التي اتبعها الأباضية في البصرة لم يؤثر عنهم «أنهم ظفر بهم في مجلس قط» .

وكان مشايخ الأباضية البارزين يشرفون على هذه المجالس العامة . ولذلك فقد سمي كل مجلس باسم الشيخ المشرف عليه مثل مجلس عبد الملك الطويل ، ومجلس أبي سفيان قنبر ومجلس أبي الحر علي بن الحصين ومجلس أبي مودود حاجب الطائي وغيرها .

النوع الثاني: مجالس المشايخ ويحضرها زعماء الإباضية فقط.

وفي هذه المجالس تقرر السياسة التي يجب على أهل الدعوة اتباعها.

وكان مجلس المشايخ عبارة عن مجلس تخطيط وتنظيم لحركة ثورية سرية . ولا يجوز لأحد غير الإمام وكبار المشايخ حضور هذه المجالس . وتورد المصادر الأباضية أمثلة كثيرة منع فيها بعض أتباع الدعوة من الدخول إلى هذه المجالس منها ما يذكره أبو سفيان من أن شعيب بن عمر ، وهو من أفاضل شباب أهل الدعوة ، قد حاول دخول أحد مجالس المشايخ وكان منعقدًا في الليل في بيت زوج أخته حاجب الطائي . ولما علم الأخير به رفض السماح له وطلب منه العودة إلى بيته الذي كان يبعد أكثر من ثلاثة أميال .

النوع الثالث: هو ما يمكن أن نسميه باسم مجالس أو مدارس حملة العلم ، حيث كان الدعاة من مختلف الأمصار يتلقون العلم وأصول الدعوة وتعاليمها مباشرة عن الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي الذي أقام مدرسة لهذه الغاية في سرداب أرضي لا يعرفه إلا الدعاة (حملة العلم) شيوخ الأباضية البارزين الموثوقين . وكان أبو عبيدة يتظاهر بصنع القفاف لذلك دعي بالقفاف . وبينما كان الإمام يلقي دروسه على تلاميذه كان هناك حارس يجلس عند الباب الخارجي للسرداب فإذا مرّ أحد حرك الحارس سلسلة جديدة فيتوقف أبو عبيدة عن إلقاء دروسه ومحاضراته ، ويشتغل وتلاميذه

بصنع القفاف . وإذا أمن الحارس وأيقن عدم وجود خطر حرّك السلسلة مرة أخرى فيعود أبو عبيدة وتلاميذه للدرس والتحصيل . ومن هذه المدرسة تخرج دعاة الأباضية في الأمصار الذين عرفوا باسم حملة العلم .

كان حملة العلم يختارون عادة من بين أهل الولايات التي يرسلون إليها ، أو من المناطق القريبة منها لمعرفتهم بأحوال الناس وعاداتهم وتقاليدهم وطرق معيشتهم ومقدار تطورهم الفكري والحضاري ودرجة ولائهم للسلطة الحاكمة ، وبالتالي يسهل عليهم مخاطبة الناس واختيار الظروف الملائمة والأماكن المناسبة لاقامة مراكز الدعوة ونشر أفكارهم ومعتقداتهم في تلك البلاد . وإذا تفحص الباحث المصادر الأباضية المتوافرة فإنه يجد أن معظم حملة العلم كانوا من بين السكان الأصليين للبلاد التي يبشرون فيها ، على أن وجود دعاة من أماكن أخرى كان واردًا ولكن بصورة محدودة جدًا ، وطبقًا لمقتضيات الظروف ، كما حدث عندما رافق أبو الخطاب المعافري وهو عربي يمني حملة العلم المغاربة الذي جاؤوا إلى البصرة في نحو عام 135 هـ ، وبقوا خمس سنوات يأخذون العلم وأصول المذهب الأباضي عن إمام الإباضية الأكبر أبي عبيدة التميمي . ومهما يكن من أمر ، فإن الروايات الأباضية تشير إلى أن أبا عبيدة كان يحبذ اختيار الدعاة من السكان المحليين .

وقد نظم أبو عبيدة العلاقة بين مركز الدعوة في البصرة وحملة العلم . وإذا حدث خلاف بين أفراد حملة العلم في أي من الأمصار فكان عليهم العودة لمشايخ البصرة للنظر فيه والعمل على حله .

وكثيرًا ماكان أبو عبيدة يرسل أحد أصحابه المعروفين بالحصافة والعلم للنظر في مثل هذه الطوارىء . وكان رسوله في معظم الأحيان حاجب الطائي الذي كان ساعده الأيمن ومستشاره الأول وكان المسؤول عن الشؤون العسكرية والمالية وشؤون الدعوة خارج البصرة . ومن أمثلة ذلك ما حدث بين أتباع الدعوة من أهل حضرموت . فقد وقع الخلاف بينهم وقبض فريق على رئيسهم عبد الله بن سعيد وشدوه في الحديد وبايعوا رجلا آخر يقال له حسن بينما خالفتهم طائفة أخرى . واتفق الفريقان على تحكيم مشايخ البصرة في الأمر وأرسلوا إلى البصرة يعرضون مشكلتهم على الامام ويطلبون منه النصح والارشاد فأرسل لهم أبو عبيدة حاجب الطائي في موسم الحج ، وبعث لهم يخبرهم بذلك ويأمرهم بموافاة حاجب في الموسم . وصدع الجميع لأمر شيخهم أبي عبيدة ، ووافى الحضارمة حاجبًا في مكة وتشاوروا معه في أمرهم وتوصلوا إلى حل مناسب يخدم دعوتهم ويجمع شملهم .

استطاع الأباضية نتيجة للتنظيم الدقيق والدعاية النشطة والحذرة أن يكسبوا أعوانًا كثيرين في مناطق متعددة من الدولة الاسلامية خلال الربع الأخير من القرن الأول الهجري . وفي بداية القرن الثاني الهجري وبعد أن اعتلى يزيد بن عبد الملك عرش الخلافة (101 هـ 105 هـ) حدثت بعض التطورات السياسية التي أدت إلى بروز جماعة متطرفة من بين الأباضية تنادي بوجوب الثورة . فقد ثار يزيد بن المهلب الذي كان قد هرب من السجن إثر وفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز واحتل البصرة بعد أن هزم واليها وحرّر اخوته وأقاربه من سجنه .

ثم قام بدعاية واسعة انضمّ إليه على أثرها عدد كبير من أهل العراق وامتد نشاطه فشمل الأهواز وكرمان وفارس حتى السند . ولما علم الخليفة بهذه الانتصارات التي أحرزها يزيد بن المهلب أرسل إليه جيشًا كبيرًا بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس بن الوليد واستطاع الجيش الشامي أن يهزم الثوار في معركة العقر سنة 102 هـ وقتل فيها يزيد بن المهلب نفسه وهرب بقية أقاربه واخوته إلى قندابيل في السند . ولحق بهم هلال بن أحوز التميمي على رأس قوة كبيرة فحاصرهم وألحق بهم هزيمة منكرة وقتل معظم أفراد الأسرة المهلبية بينما أسر الباقون مع نسائهم وأطفالهم وعوملوا معاملة سيئة حتى أنهم تعرضوا للبيع في السوق كالرقيق .

كان لهذه المعاملة السيئة التي لقيها المهالبة ، قادة الأزد وزعماؤهم - أثرها الكبير في إثارة غضب الأزد وسخطهم على الحكم الأموي . ولم يقتصر ذلك على أزد العراق وخراسان بل تعداه إلى أزد عمان . وأدى ذلك بالتالي إلى حنق الأباضية في البصرة وخاصة أن عددًا كبيرًا منهم كان ينتمي إلى قبيلة الأزد ومنهم عدد من المهالبة أنفسهم . والحقيقة أن قضية المهالبة قد ربطت منذ أيام جابر بن زيد بالقضية الأباضية حيث كان أي خير أو شر يمس هذه الأسرة ينعكس على الحركة الأباضية وعلى علاقتها بالسلطة الحاكمة . ومن المؤكد أن عددًا من المهالبة وأزد البصرة الذين لقوا مصرعهم على أيدي الأمويين وأعوانهم كانوا من الأباضية ومن بينهم عبد الملك بن المهلب . ولذلك فقد نقم الأباضية في البصرة على الحكم الأموي بعد قمع ثورة يزيد بن المهلب وضاقوا ذرعاً بسياسة ولاة البصرة تجاه أنصارهم من الأزد . وارتفعت أصوات بعض مشايخهم بوجوب

الانتقام وإعلان الثورة ومن بين هؤلاء : الشيخ الأباضي أبو نوح صالح الدهّان وبعض أفراد الأزد الذين نجوا من الموت والهلاك ، ومن بينهم عاتكة أخت يزيد بن المهلب المعروفة بحماسها الشديد للمذهب الأباضي وتفانيها في خدمته . ولكن الإمام أبا عبيدة كان يرى أن الوقت لم يحن بعد لإعلان الثورة المسلحة ، ورفض بشدة آراء المنادين بها . وحبّذ أبو عبيدة أن يقوم أتباعه بثوراتهم في أماكن نائية بعيدة عن متناول السلطة المركزية . وكان في تنظيمه ، يخطط لمثل هذا العمل ولكنه كان يتحين الفرص المناسبة والملائمة لكل قطر حتى يأمر أتباعه فيه بالخروج . ولذا فقد قاوم آراء أتباعه المنادين بالثورة وبقي الأباضية طيلة فترة يزيد بن عبد الملك محافظين على سرية حركتهم متجنبين كل ما يثير السلطات حتى لا يواجهوا نفس مصير الأزد والمهالبة . وقد كان موت يزيد بن عبد الملك واعتلاء أخيه هشام الخلافة (105 هـ/724 م - 125 هـ/743 م) وتعيين خالد القسري واليًا على العراق فرصة مناسبة ساعدت أبا عبيدة على إقناع أصحابه بالتحلي بالصبر . فقد أتسمت فترة ولاية خالد القسرى باللين والتسامح ليس مع الأباضية فحسب بل مع معظم المعارضين للحكم شريطة أن لا يرفعوا السيف في وجهه . وبلغ به التسامح أن بعض مشايخ الأباضية كانوا يشتمونه من على منابر المساجد كما كانوا يؤلبون الناس ضد عامله على البصرة ، القاضي المعروف بلال بن أبي بردة ، ولم يمسهم بضر . وقد تزعم هذه الحملة الدعائية ضده أحد شيوخ الأباضية البارزين وهو أبو محمد المهدي . وعندما عزل خالد القسري وعين بدلا منه يوسف بن عمر الثقفي أتبع الأخير سياسة قاسية مخالفة لسياسة سلفه واستعمل العنف والشدة ضد المناوئين

للسلطة حتى لو لم يرفعوا السيف في وجهها .

في ظل هذه السياسة التي أخذ يمارسها الوالي الجديد تعرّض أبو عبيدة لضغط جديد من بعض أتباعه في وجوب التحرك والخروج . ويبدو أن أبا عبيدة قد أدرك أنه ليس بوسعه الاستمرار في مقاومة رغبات بعض أصحابه ومشايخ دعوته لوقت أطول ولكنه رأى في الوقت نفسه أن الخروج على طريقة متطرفي الخوارج أو على منوال الثورات الأخرى التي قامت في العراق لن تؤدي إلى نتيجة طيّبة وستقمع بعنف وشدة وقد تضيع بعدها الدعوة ويصعب تنظيم أصحابها من جديد . لذا قرر السير في الانتقال من طور الكتمان إلى طور الظهور بحذر شديد متخذاً خطوات تنظيمية جديدة في هذا الشأن كان لها أثر كبير في انتصار الدعوة وإعلان إمامة الظهور ، ليس في البصرة ، ولكن في الأمصار الأخرى البعيدة عن مركز السلطة المركزية والتي كان أبو عبيدة يرى ، من قبل ، أن أي نجاح لدعوته سيكون في هذه الأمصار النائية ولذا فقد ركز جهوده وجهود دعاته على سكان تلك الولايات الواقعة على أطراف الامبراطورية الإسلامية .

كانت خطة أبي عبيدة مختلفة عن خطط كل ما سبق من ثورات وحركات وكانت ترمي إلى إقناع المتطرفين من أصحابه بأنه ليس أقل حماسًا منهم للوصول إلى الهدف الأسمى ولكن بعد التأكد من أن الأمر قد أعدّ له الاعداد الكافي الضروري . وتبعًا لذلك قرر أبو عبيدة أن يعزل نفسه وأصحابه بقدر الأمكان عن بقية المسلمين (المخالفين) ويكوّن ما يمكن أن نسميه تجوزًا «المجتمع المغلق» والذي أطلق عليه جماعة المسلمين . وحذّر أصحابه وأتباع دعوته من

التعامل مع الولاة والحكام وطلب منهم عدم قبول أي منصب وتناول أي مال منهم . وعلى الرغم من أن هذه الأمور كان مسموحًا بها في زمن سلفه جابر بن زيد فإن أبا عبيدة وجد من الضروري في هذه المرحلة إتخاذ مثل هذه الاجراءات حتى يحافظ على سرية الحركة ويمنع الاغراءات لبعض أتباع الدعوة . ليس هذا فحسب بل أن أبا عبيدة لم يجبذ التزاوج بين أتباع الدعوة وبقية المسلمين . ومع أن هذا الأمر مشروع في العقيدة الأباضية إلا أن الإمام فعل ذلك من قبيل المحافظة على عدم اختلاط أهل الدعوة مع غيرهم ومنع تسرب أية معلومات عن نشاطاتهم وتحركاتهم بل وسلوكهم وتعاملهم فيما بينهم . وتشير الرواية الأباضية إلى أن أبا عبيدة هجر أحد أتباعه لأنه زوج ابنته لرجل غير أباضي بينما سمح جابر بن زيد من قبل بمثل ذلك . على أنه يجب أن لا يغيب عن البال أن هذا الإجراء كان مؤقتًا قبل إعلان إمامة الظهور ولم يكن قاعدة فقهية يجب اتباعها والأخذ بها في كل الظروف . وجدير بالذكر أن الاباضية في مرحلة الكتمان يجيزون بعض الأمور مثل تعطيل الأحكام وعدم إقامة الحدود لأنهم - طبقًا لوجهة نظرهم - ليسوا في وضع يسمح لهم بتنفيذ هذه الأمور .

بالاضافة إلى هذه التنظيمات فقد خلق أبو عبيدة من أتباعه مجتمعًا تسوده المودة والمحبة والإخاء في العقيدة وتسيطر عليه روح الجماعة . وكان يحثهم على التآلف والتعاون فيما بينهم . كما طلب من الأغنياء أن يكونوا عونًا للفقراء وسندًا لهم حتى لا يضطر الفقير من جماعته لاحتياج أحد من المخالفين . وقد لبى الأثرياء منهم هذا

الطلب بحماس منقطع النظير . وتورد المصادر الأباضية أمثلة كثيرة تشير فيها إلى تنافس الأغنياء منهم في سد حاجة الفقراء وإعطائهم .

يقول أبو سفيان مدللاً على ذلك : «سمعت بعض مشايخ من أدركت يقولون : أنا لنذكر إذا دخل شعبان أن كان الفقراء من المسلمين (الأباضية) لتأتيهم الأحمال بالسويق والتمر وما يصلحهم لشهر رمضان ولا يعلمون من بعث بها . يأتي الرجل بالجمال حتى يقف به على باب الدار فيقول : أدل ، فيكتب في خرقة كلوا واطعموا . ويروى أن شخصًا من الأباضية يدعى ديال بن يزيد كان يستأجر الأكسية في البرد الشديد . بألف درهم أو أقل أو أكثر وليس عنده منها شيء وانما يتكل على الله وعلى المسلمين (الأباضية) . ثم يفرقها بين الفقراء ويجمع ثمنها بعد ذلك من أغنياء الأباضية وكرمائهم . وكان الداعية الأباضي ، أبو الخر ، موسرًا جدًا وتأتيه غلته سنويًا فيقسمها نصفين ، فيفرق نصفها في فقراء المسلمين (الأباضية) وفي معاونتهم . ليس هذا فحسب بل أن أغنياء الأباضية كانوا يتسابقون في دفع الديون المتبقية على من يموت من أصحابهم . يقول أبو سفيان : «مات حاجب وعليه دين من المسلمين ليغسلوه ..... فقال لهم قرة : ياقوم . ما تقولون في دين هذا الرجل ؟ فابتدر ثلاثة رجال وقرة رابعهم وضمنوا دينه . قال : ودخل الفضل بن جندب وكان من خيار المسلمين (الأباضية) وكان موسرًا فأخبروه . فقال لهم الفضل : دينه عليّ دونكم حتى أعجزه عنه ولا يبقى لي مال» .

ولم يغفل أبو عبيدة ومشايخ الأباضية في البصرة عن أتباعهم في الأمصار الأخرى وخاصة أنهم يحتاجون بشكل دائم إلى المساعدات

المالية المعنوية حتى يستطيعوا الصمود ، ولكي يستعدوا بشكل فعال للوقوف في وجه أي خطر يتهدَّدهم ، أضف الى ذلك فإن جماعات الأباضيه خارج البصرة كانت في بعض الأحيان تواجه بعض المشاكل الطارئة ولا بد لحل هذه المشاكل من الرجوع إلى أئمة البصرة ومشايخها . ومن هنا فقد برزت الحاجة لا يجاد نوع من التنظيم يتولى الاشراف على كل هذه الأمورُ ويضمن للدعوة استمرارها وتطورها ويهيء لها بالتالي سبل النجاح والنصر . ولتحقيق ذلك أنشأ أبو عبيدة في البصرة ما يمكن أن نسميه بالحكومة الثورية السرية . وكان هو زعيمها وله الكلمة العليا في الشؤون الدينية من فتوى وقضاء والاشراف على الدعاة وحملة العلم الذين يرسلون للأمصار . وأنشأ بيت مال خاص بجماعة المسلمين (الأباضية) في البصرة وكل لحاجب الطائي مهمة الاشراف على الشؤون المالية والعسكرية وشؤون الدعوة . وقد كان أبو عبيدة ذكيًا في الربط بين الناحيتين المالية والعسكرية ووضعها في يد رجل واحد قدير ، وذلك لأن موارد بيت مال الفرقة كانت تستخدم لمساعدة الدعاة والثوار الأباضية في المناطق البعيدة . وكان موارد بيت المال تأتي من مصدرين : الأول عبارة عن ضريبة فرضها الامام على أتباعه في البصرة . ولا تذكر المصادر متى كانت تدفع ولا مقدارها . ولكن من الثابت أنها لم تكن تفرض بالتساوي بل تتفاوت حسب ثراء المكلَّف ودخله . ولا تذكر المصادر أن أحدًا من الاباضية قد تخلف عن دفعها لأنها تعتبر جُزْءا من واجباتهم الدينية التي تساعد على انتصار دعوتهم التي تمثل الاسلام الحق كما كان موجودًا زمن الرسول ﷺ وفي عهد الخليفتين أبي بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما . ويبدو أن

هذه الضريبة كانت تجمع عند الحاجة . أما المورد الثاني لبيت المال فكان يأتي من التبرعات السخية التي يدفعها أثرياء الأباضية . ويبدو أن التجار الأباضية كانوا من الأغنياء المعدودين . وكانت تجارتهم تتجاوز البصرة وما جاورها وتصل إلى الصين والشرق الأقصى . ولم تقتصر هذه التبرعات على الأغنياء من الأباضية بل تعدتهم إلى بقية الناس من أهل الدعوة ، رجالاً ونساء - وتخبرنا الروايات أن حاجبًا دعا أحد أصحابه ويسمى أبو طاهر وطلب منه أن يجمع الصدقات من النساء وأوساط الناس لأنه لا يريد أن يكتب عليهم ضريبة . «فانطلق أبو طاهر فين انطلق معه من المسلمين ، فلم يأتوا يومئذ امرأة ولا رجلاً إلا وجدوه مسرعًا فيما سألوه . وكان رجل من المسلمين لم يكن يرى أنه صاحب مال فدفع إليهم ثلاثة آلاف درهم . فلم تمض الليلة حتى جمع أبو طاهر عشرة آلاف درهم» .

نتيجة لهذه التنظيمات الدقيقة الذكية ، وانطلاقًا من روح الأخوة والتسامح والمودة والتعاون التي سيطرت على جميع أتباع المذهب في طوره الأول ، وتتويجًا لنشاط حملة العلم المتحمسين فقد استطاعت الدعوة الأباضية أن تنتصر وتمكن أتباعها من إحراز نجاح باهر في أماكن مختلفة من أصقاع الدولة الاسلامية . وفي العقد الثالث من القرن الثاني الهجري استغل مشايخ الاباضية في البصرة الظروف التي كانت تمر بها الدولة الأموية وأوعزوا إلى دعاتهم وحملة العلم منهم إلى إعلان الامامة في كل من حضرموت واليمن وعمان وبلاد المغرب .

واستطاعوا تأسيس إمامة إباضية في كل من الأقطار المذكورة . ولكن هذه النجاحات لم تعمر طويلاً ، فقد قضى الأمويون على

إمامة عمان الأولى سنة 134 هـ . ومنذ ذلك التاريخ أصبح تاريخ عمان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالمذهب الأباضي بحيث لا يمكن فهم تاريخ هذا القطر بمعزل عن تاريخ المذهب الأباضي وتطوره .

أما في الجزء الغربي من بلاد الخلافة الاسلامية منذ قام الاباضية بجهود مضنية في سبيل انتصار دعوتهم ، واستطاعوا بعد كفاح مرير تأسيس الدولة الرستمية الأباضية في بداية العقد السابع من القرن الثاني الهجري . وقد عمرت هذه الدولة أكثر من قرن وثلث وقضى عليها الفاطميون نحو عام 297 هـ . وعلى الرغم من ذلك فقد بقي المذهب الأباضي قائمًا في مناطق متعددة من بلاد المغرب حيث كون أتباعه مجتمعات خاصة بهم في مناطق نائية بعيدة عن متناول السلطات المعادية . ولا تزال بقاياهم موجودة إلى يومنا هذا في جبل نفوسة في ليبيا وفي جزيرة جربه في تونس وفي وادي ميزاب في الجزائر .

وهكذا فإن جهود مشايخ الأباضية وحملة العلم وتنظيماتهم السرية الدقيقة خلال القرنين الأول والثاني الهجريين قد أثمرت تأسيس دول إباضية مستقلة في الجزر العربية وبلاد المغرب ، كان لها دور هام ومجيد في التاريخ الاسلامي .

وفي ظل هذه الدول قام الاباضيون بجهود مشكورة في نشر الاسلام في أماكن كثيرة ، وكان لهم فضل كبير في هذا الشأن في كل من أفريقية الشرقية وأفريقية السوداء جنوب الصحراء وبعض مناطق الشرق الأقصى .

كما قام الاباضيون بجهود كبيرة في سبيل إثراء المكتبة

الاسلامية بالمؤلفات الكثيرة المتنوعة التي تتناول مختلف جوانب الفكر الاسلامي . ويمكن للباحث المطلع على هذه المؤلفات أن يسجل الملاحظات التالية حول بعض الأمور التي لا تزال محل نقاش وجدل بين الباحثين والمفكرين .

1 - أن الأباضيين ليسوا خوارج كما تزعم بعض كتب المقالات والملل والنحل وكما يدعى بعض الكتاب المحدثين الذين قلدوا هذه المؤلفات دون تدقيق وتمحيص . والواقع أن الاباضية لا يجمعهم بالخوارج سوى إنكار التحكيم .

2 - أن الإباضية حرموا قتل الموحدين وإستحلال دمائهم وحرموا استعراض الناس وامتحانهم كما فعل متطرفو الخوارج مثل الأزارقة والنجدية .

3 - ان الاباضيين ينظرون إلى الدين نظرة واحدة متكاملة لافصل فيها بين المظاهر الروحية والمادية ولا طغيان لاحداهما على الأخرى . وتبعًا لذلك فقد أنكروا التصوف ورفضوه .

4 - إن المدقق في المصادر الفقهية الاباضية يجد أن أصحاب المذهب الاباضي من أكثر المسلمين إتباعًا للسنة الشريفة والاقتداء بها . أما ما تلصقه بهم بعض المصادر من تهم فإنما هو ناتج عن أحد أمرين : الجهل أو التعصب .

5 - أنهم وحدهم الذين طبقوا مبدأ الشورى في الحكم بعد الخليفتين أبي بكر وعمر .

أيها الاخوة :

في ختام حديثي لابد لي من القول : إن الوحدة العربية والتضامن الاسلامي يستدعيان منا أن نحكم العقل والعدل في علاقاتنا جماعات وأفراداً . وإن زوال الفرقة بين أتباع المذاهب الاسلامية أمرُهام وضروري لتحقيق حريتنا ووحدتنا ومستقبل أجيالنا . إن الدين واحد والمصدر واحد ولا مبرر للفرقة والاختلاف بين المسلمين إن هم حكموا قول رسول الله ﷺ تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله وسنة رسوله الكريم ﷺ .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

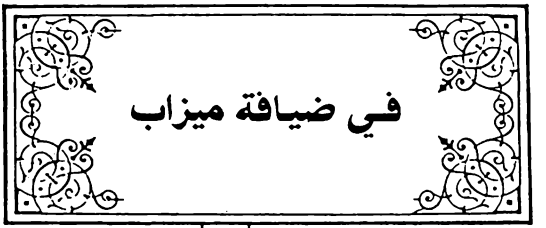

. . . «على الجزائري الذي يزور ميزاب ، ألاَّ يذهب إليه بهدف التصوير وأخذ المناظر الفتوغرافية كما يفعل السياح بحثاً عن المناظر التقليدية ذات الألوان المحلية ، وإنما ينبغي الذهاب إلى هناك بضمير الباحث الذي يرغب في تمزيق الاغلفة ، فإنه بعد تمزيقها يكتشف في ميزاب شيئاً جديداً ، هذا الجديد الذي هو ملكنا جميعاً» .

في ضيافة ميزاب[1]

مالك بن نبي [1]
تعريب الدكتور محمد ناصر
بقلم المفكر الاسلامي الجزائري

إن الطريق الذي اتخذته ما بين الجزائر العاصمة إلى غرداية في الأسبوع الماضي ، يقطع المناطق الجزائرية الثلاث ، فالمسافر يستطيع أن يشاهد في ساعات قليلة تلك المناظر النموذجية من التل ومن النجود ، ومن الصحراء السياحية المختلفة ، ولا سيا في هذا الفصل من السنة حين يمد الربيع زربية خضراء تغطي كل المناطق السهلية منها والجبلية ، أنه يقدم للمسافر طيلة الطريق ، موكبا من الزهور الرائعة المختلفة التي تحيي المسافر وتستقبله ، وكأنها فرقة شرفية .

وتبدأ المناظر الطبيعية في التغير شيئا فشيئا من أخضر فاتح إلى أخضر داكن وتبدو المسافات في التباعد ما بين الأشجار شيئا

(1)الأستاذ مالك بن نبي (رحمه الله) مفكر إسلامي متخصص في دراسة الحضارة الإسلامية ، يمتاز في أبحاثه بالتحليل العميق ، والنظرة الشمولية ، ترك مؤلفات قيمة عديدة من أشهرا الظاهرة القرآنية ، توفي بالجزائر في سنة 1973 .

فشيئا ، وتختفي عن الأنظار نهائيا كلما توغلنا نحو الجنوب ، وتظهر فجأة القوافل الأولى للجمال وهي ترعى بمحاذاة خط سكة الحديد غير بعيدة عن مدينة (عين وسارة) وغير بعيد عن هذه المنطقة ، وقبل الوصول إلى (الجلفة) يظهر الكثيب الأول من الرمال الذهبية ،

لماذا يجد الاجانب الذين يصلون إلى (ميزاب) انفسهم فجأة أمام مملكة سحرية رائعة خلابة ؟ ! ذلك هو السؤال الذي ألقي علي - أو هو على نحو من ذلك - وأنا أستقبل بكل حفاوة من طرف المسؤولين في مركز الحزب بغرداية .

هل هو الا بتهاج ؟ ولكن هذا الشعور أظنه احساسا عاما ، يشعر به كل أحد ، حتى المسافر الجزائري القادم من الشمال يحس به ، إني أعتقد أن هذا الشعور يعود أولا إلى الإحساس بالاغتراب ، والابتعاد عن العمران .

هذا الاحساس الذي يحس به المرء وهو يقطع المسافة الطويلة الخالية العارية ما بين (الجلفة) و(ميزاب) .

إن الشعور بالاغتراب يحس به ابن (ميزاب) أيضا حين يقف في (المستجاب) حيث خصصت التقاليد المحلية هذا المكان المطل باللون الأبيض الضارب إلى الزرقة ليقف فيه المسافر المغادر داعيا الله بالحفظ والسلامة حين يودع أهله وبيته متجها إلى مقر عمله بالتل .

إن السائح القادم من التل يشعر بمثل هذا الشعور ، وهو يغادر الجلفة ليقطع الصحراء الشاسعة ، إن الشعور بالابتعاد عن الأهل والعمران شعور متشابه .

إن ابن البلد يعبر عن ابتهاجه بالوصول وهو يؤدي صلاة شكر

لله في (المستجاب) ، أما السائح فيشعر بالابتهاج والسرور حين يحس بالنجاة وهو يكشف فجأة أسطح المنازل الممتدة تحت عينيه وهو يصل إلى غرداية من أعالي جبالها المطلة عليها وعلى قرى ميزاب المجاورة .

وهكذا يجد السائح الغربي - المتعود على الأشجار وتزاحم السكان - نفسه فجأة في موطن آخر مغاير يتمثل في النخيل ووجوه الميزابيين أنفسهم أن السائح لا يبحث عن التغيير أو الجديد في الأوطان متمثلا في أي تغيير يحدث في الأمن الذي يراه ، أنه شخص هارب مما تعود على رؤيته والعيش فيه ، هارب من مكتبه ، من مصنعه ، من (المترو) من مدينته المضطربة الخائفة ، إن ابتهاج السائح الذي يصل ميزاب لأول مرة يفسره هذا الاحساس المزدوج ، أنه يفر مثلنا من هذه المساحة الشاسعة الحالية التي تهين على المشاعر على حساب الأخلاق والقيم .

إنه يجد في ميزاب وجها لحضارة جديدة ، إنه هذا الوجه الذي همّني بصفة خاصة ، ولا بد من العودة دونما شك في التاريخ الجزائري إلى الوراء .. إلى آخر عهد الدولة الرستمية لنجد الجذور لهذه الحضارة الموجودة هنا بعد انقراض الدولة الرستمية على يد الفاطميين في (تاهرت) .

إن أصول هذه الحضارة إنما حملتها أمواج الأحداث إلى هذه المنطقة حملتها العواصف التاريخية الهوجاء بذرة واحدة وزرعتها حيث تنمو اليوم مدينة (العطف) التي هي جدة (ميزاب) ، ومنذ ذلك الحين فإن البذرة تضاعفت وتكاثرت ، واليوم فإن (ميزاب) يتكون من : (العطف) ، و(مليكة) ، و(غرداية) ، و(بني يزقن)

وأنا هنا لا أورد هذه القرى حسب أولوية نشأتها التاريخية حتى لا أخطىء ، غير أني أحدد بأن المدينتين (بريان) و(القرارة) اللتين يعود عمرهما إلى ثلاثة قرون هما آخر حلقة في شجرة هذا النسب .

إن هذه القوى تكون مجتمعا متماسكا ، وهذا التكوّن لا يعود إلى الخصائص الدينية فحسب ، وإنما يعود إلى الإجماع الذي يقعد كل علاقات الأفراد مع المجموعة والعكس ، ومن ثم فإن الميزابيين يكوّنون مجتمعا روحيا بأتم معنى الكلمة أنهم (مورمون) الجزائر .

ان القاعدة الاخلاقية هنا تتطلب من كل واحد احترام المجموع ، هذه القاعدة التي تجبر كل فرد على احترام المجتمع ، وتفرض عليه السلوك السوي ، هذه القاعدة الاجبارية تذهب إلى حد البراءة والنفي للأفراد في بعض الحالات التي تستدعي ذلك ، ففي حالة إعلان البراءة من الشخص يصبح غير مستطيع الاندماج في المجتمع من جديد الا بعد أن يعلن التوبة من ذنبه صراحة أمام الملأ في المسجد ، إنه ما نسميّه اليوم (النقد الذاتي) وإننا نلمس آثار المحافظة على هذه القاعدة الهامة في المجتمع هنا إذ أننا لا نرى في (ميزاب) أية علامة للإنحراف أو التشرد كما نراها في غير (ميزاب) .

لم أر شخصا واحدا أخذ بجريرة الشكر في أزقة (غرداية) - على سبيل المثال - هذه المدينة الأكثر تفتحا باعتبارها تستقبل مختلف الأجناس ولم أر أية علامة للانحطاط الأخلاقي الاجتماعي ، كأن يكون المرء في رحمة السؤال وطلب الصدقة ، أني لم أر مسؤلاً واحداً طيلة إقامتي ، وبتعبير آخر نقول : إن الوسط الميزابي : يحقق بقوة الشروط النفسية والاجتماعية لبناء حضارة صغرى ان الموضوع

يستحق دراسة اجتماعية مفصلة غنية بالمعلومات ، إن ابناء ميزاب الذين يزاولون بكثرة اليوم التعليم العالي ينبغي عليهم أن يخصصوا بعض الأطروحات الاكاديمية لهذا الموضوع .

إن الذي أريد تسجيله هنا هو تعجبي من سؤال أحد المتعاونين - الذين تفضلوا باستضافتي إلى ناديهم بغرداية - حينما وجه إليَّ السؤال التالي :

«هل تعتقدون ان الموانع الدينية الموجودة هنا تسمح بتطور المجتمع ، يبدو لي أن هذا السؤال يحرق مراحل تاريخية هامة . فإنه قبل أن يفكر أي مجتمع في تبني اشكال حضارية جديدة للتطور لا عليه أن يفكر أولا في المحافظة على جوهره وماهيته ، ويحافظ على وجوده ، هذا الذي له الأولوية ، فإذا حدث له انقلاب أو طفرة ، فإن التطور عندئذ يصبح بالنسبة اليه أشبه ما يكون بمر خطير فوق هوّة سحيقة دوق حواجز فإنه بعثرة قدم واحدة يتدحرج ساقطا في الهوة ، وهو السقوط في هوة التسول والسكر ، والعهر ، والتشرد .

وعندما أسأل هل الموانع الدينية تسمح للمجتمع بالتطور ، فإن هذا السؤال يكون عندئذ كمن يقول لماذا لا يحطم المجتمع الحواجز لينتحر ، إنني أعلم بالطبع أن السائل قد لا يقصد هذا ولكني أنا الذي ترجمته واستشففته من خلال نظرتي إلى التاريخ والحضارة ، وهي ليست نظرة السائل طبعا .

ومهما يكن من أمر ، فإن المجتمع الميزابي قد حافظ بحكمة وتبصر على الحواجز حتى يستطيع المرور من العصر الوسيط الى العصر الحديث في أمن .

والواقع إنه توجد في هذا الجزء من الجزائر امكانات للتطور غير مقدّرة وغير معروفة في باقي نواحي القطر .

إنهم قلة قليلة اولئك الذين يعرفون أن أول مدرسة عصرية انشأت بمدينة (تبسة) منذ ما يقرب من نصف قرن ، وأقل من القليل من يعرف أن هذه المدرسة إنما انشأها الشيخ عباس بن حمّانة بمعونة تاجرين من ميزاب ، اننا نرى هنا الوطنية الفتية والتقاليد الأصيلة (سمُّوها إن شئتم موانع دينية) تلعب دوراً هاماً في الحفاظ على الشخصية الجزائرية في وقت كانت فيه مهددة تهديداً شديداً ، إن بداية هذا التطور الثقافي تعود إلى أواخر القرن الماضي زرت في بني يزقن المكتبة التي تحتوي على التراث القيم الذي تركه الشيخ اطفيش . هذا العلامة الشهير الذي جاوزت شهرته حدود ميزاب ، بل وحدود القطر الجزائري ، وأنا لا أتحدث هنا عن شهرته ونفوذه في المجتمعات الاباضية الأخرى من عمان الى جبل نفوسه باعتباره فقيها ضليعا ، وانما تحدث عن تأثيره وشهرته باعتباره عالما مسلما لا أكثر ولا أقل ، تفاعل مع الأحداث الكبرى التي كانت تشغل العالم الاسلامي في بداية القرن العشرين عندما كان العالم الاسلامي يواجه أخطر اللحظات التي مر بها في تاريخه .

إن سليمان الباروني الذي جسّد أهم الفترات الدراماتيكية للمقاومة الليبية ضد الاحتلال الإيطالي لم يكن سوى تلميذ من تلامذة الشيخ اطفيش ، وهذا له دلالته العميقة .

أراني القيم على مكتبة الشيخ أطفيش وهو من عائلته - أراني الأوسمة العلمية التي حصل عليها قبل 1908 التي هي سنة الثورة التركية ، حين حصل الشيخ على وسام (الباب العالي) ، وحصل على

وسام من سلطان زنجبار ، ووسام من الأكاديمية الفرنسية لمقدرته العلمية .

مات الشيخ في سنة 1910 في دويرة تفضل عليه بزيارتها من باب يؤدي إليها من المكتبة نفسها ، وهناك تحت السقف المتواضع المسقف . بخشب النخل كانت الحلقة التي يجتمع فيها بتلامذته .

ولم ينقطع هذا التيار الثقافي الذي تركه الشيخ بموته ، فقد كان له من تلامذته من واصل مسيرته التي تعتبر ارهاصا للحركة الاصلاحية التي ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى في الجزائر .

وكان الشيخ أبو اليقظان ـ الذي زرته وهو على فراش المرض – من ألمع هؤلاء التلامذة .

واليوم قام المعهد الاسلامي بمدينة القرارة ﴿معهد الحياة﴾ تحت الادارة الحركية الحازمة للشيخ بيوض بمد هذا التيار إلى مرحلة ما بعد الثورة حيث نجد التعريب من أهم المشاغل والاهتمامات الوطنية .

لقد اتصلت بتلامذة المعهد في عدة لقاءات ، هذه الشبيبة المجتهدة التي تواصل حمل هذه الرسالة ، وتحمي التقاليد الأصيلة دون أن تغفل مشاكل العصر ، إنها تعالج مشاكل العصر ولكن دون أن تكون سببا لإزاحة الحواجز الواقية المشار إليها . وبالنسبة للاحتياجات المادية لتسيير المعهد فان المجتمع هو الذي يقوم بها ، هذا المجتمع الذي من خصائصه أن يكون كل فرد فيه من أجل المجموع وكل المجموع من أجل الفرد ، انها القاعدة السحرية التي تنظم الحياة والعلاقات في المجتمع الميزابي .

ففي (العطف) حين تضررت الطريق المؤدية إلى غرداية بفعل فياضانات السيل ، فإن الشبيبة قامت على الفور باصلاح ما فسد ، وفي (القرارة) حين تقرر بناء مسجد جديد قام الشباب على الفور بالعمل التطوعي ، ان التطور هنا من أهم قواعد العمل الاجتماعي .

كان لا بد من إقامة أطول من أجل تفاصيل أكثر ، فان ما كتبته هنا عبارة عن خواطر ملخصة كنت أسجلها صدفة .

في (القرارة) قدموا لي ونحن في الواحة تحت النخيل امام المسجد الذي عاد ولا شك لتوه من فلاحة نخلة ، كان يلبس لباس الفلاحين بقامة معتدلة متنطق بحزام غليظ ذي مسامير نحاسية ، ويداه القويتان مخددتان من كثرة العمل .

وفي (العطف) قمت بزيارة المسجد بين المغرب والعشاء فكان أن سلمت على المؤذن الذي استقبلني في هيأة العزابة (الرداء) كما كان متوقعا ، ولكني دهشت حين التقيت به صباح غد بلباس الفلاحين في إحدى أزقة العطف وهو عائد من حقله . من هنا عرفت ان العمل هو القاعدة التي تحكم هذا المجتمع .

وهنا لا بد أن أسجل هذه الملاحظة الهامة، على الجزائري الذي يزور (ميزاب) ان لا يذهب اليه بهدف التصوير وأخذ المناظر الفتوغرافية كما يفعل السياح بحثا عن المناظر التقليدية ذات الألوان المحلية ، وإنما ينبغي الذهاب الى هناك بضمير الباحث الذي يرغب في تمزيق الاغلفة ، فانه بعد تمزيقها يجد في ميزاب شيئا جديداً، هذا الجديد الذي هو ملكنا جميعا .

(م . ب)

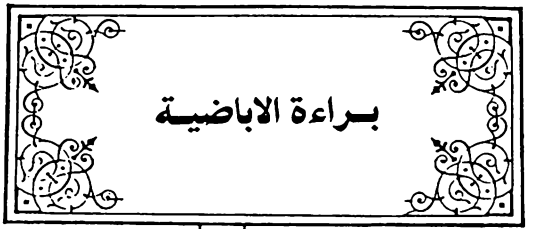

قلت إن أهم ما في توصيات مؤتمر عمان هو المبدأ التوحيدي الذي انطلقت منه ، والمنهج العملي الذي دعت إليه في تجاوز الخلاف والإرتفاع فوق ما هو عقيم من أسبابه .

بـراءة الاباضيـة[1]

بقلم : الأستاذ فهمي هويدي

استطاع مؤتمر الفقه الإسلامي الذي انعقد في سلطنة عمان[1] ، أن يطفيء أحدث حريق مذهبي شب في المنطقة ، منجزاً بذلك عملاً توحيدياً جليلاً ، يرجى له أن يتواصل على مختلف الجبهات المهددة بالاستغلال .

فقد حدث أن توجه بعض الشباب السعودي إلى الشيخ عبد العزيز بن باز - رئيس الإفتاء بالمملكة - وسألوه قائلين : وفد علينا بعض أتباع المذهب الإباضي ، فهل تجوز الصلاة وراءهم ؟ - رد الشيخ ابن باز بالسلب ، وأفتى بأن الإباضية فرقة ضالة ، ولا تجوز الصلاة وراء أتباعها ..

قالها الشيخ في كلمات معدودة ، كان لها وقع الصاعقة على رؤوس تجمعات الإباضية في زماننا ، الذين يتوزعون بين بعض دول شمال إفريقيا وسلطنة عمان . إذ نكأت الفتوى جراحاً قديمة ، وأثارت لغطاً عفا عليه الزمن ، وفتحت ملفاً حسبنا أنه انغلق .

وإزاء ذلك ، فقد تعين على الإباضية أن يجددوا سعيهم التاريخي ، ويرفعوا أصواتهم التي بحت ، وهم يحاولون إثبات براءتهم من تهمة الغلو والتكفير ومن وصمة الضلال ، التي تلاحقهم منذ أكثر من ألف عام . والتي

---

(1) الأستاذ فهمي هويدي (مصري كاتب ،صحفي ، شهير باهتماماته الإسلامية .

(1) المؤتمر عقد في شهر أبريل 1988 م .

كلما ردوها ، وظنوا أنهم دحضوها ، ظهر بين المسلمين من يعود للترويج لها ، وتجريح سمعتهم بها ، الأمر الذي يعود بالمشكلة إلى نقطة الصفر .

وحسب الروايات التي تتردد في الكواليس ، فقد سافر مفتي السلطنة ـ الشيخ أحمد الخليلي ـ إلى السعودية لتدارك الموقف ، في مهمة يبدو أنها لم تنجح . وبالمقابل فإن مبعوثاً سعودياً رسمياً زار السلطنة في محاولة لتطويق المشكلة ، وللإيحاء بأن الخلاف المذهبي ، إن تفجر بين رموزه ، فينبغي ألا تكون له تأثيرات سلبية على العلاقات السياسية بين البلدين ، وإن رأي بعض أهل المذهب ليس هو بالضرورة ولا هو دائماً رأي السلطة في المملكة .

في ظل تلك الظروف برزت فكرة الدعوة إلى عقد مؤتمر فقهي في مسقط ، لحسم المشكلة ، وإعلان براءة الإباضية مما ترمى به . وفضل أهل النظر أن يكون عنوان المؤتمر هو الفقه الإسلامي على إطلاقه . وأن يكون الفقه الإباضي أحد محاوره الأساسية . بحيث تتم مناقشة الموضوع ، وتعلن البراءة من جانب فقهاء الأمة ، بصورة طبيعية وغير مباشرة ، فيطفأ الحريق في هدوء ، ويرد الاعتبار ، وتهدأ النفوس الغاضبة والقلوب الجريحة ، بين عامة الإباضية وخاصتهم .

أكثر الذين دعوا للمشاركة في المؤتمر لم يكونوا على علم بتلك الخلفية ، ولكن قائمة المدعوين كانت توحي بأن هناك نوعاً من (الاستنفار) الفقهي ، لمواجهة أمر طارىء له أهميته ، فقد كان في المقدمة كل رموز الأزهر ، شيخه ووكيله ورئيس جامعته ، وأمين مجمع البحوث الإسلامية ، ومفتي مصر ، واثنان من وزراء الأوقاف السابقين ، غير نفر من أساتذة الشريعة والأصول . من ناحية أخرى ، فقد شارك من السعودية رئيس مجمع الفقه الإسلامي ، ومن الأردن وزيرا الأوقاف والشباب (وله مؤلف

عن الإباضية) إضافة إلى المفتي وعميد كلية الشريعة ، وشيخ فقهاء الشام المعاصرين ، الشيخ مصطفى الزرقا . كان بين المشاركين أيضاً مفتي سورية وممثلو كليات الشريعة في مختلف الجامعات الخليجية ، وعدد من فقهاء الإباضية في تونس والجزائر ، غير فقهاء المذهب في عمان بطبيعة الحال .

ورغم أن البحوث المتعلقة مباشرة بالمذهب الإباضي لم تتجاوز خمسة من بين 14 بحثاً عرضت على المؤتمر ، إلا أن محاور البحث الأخرى كانت متصلة بالموضوع بصورة غير مباشرة ، إذ أنها ركزت على وحدة الأمة الإسلامية ، ومرونة الفقه الإسلامي ، ومجالات الاجتهاد عند فقهاء المسلمين .

وكأن الرسالة التي أريد لهذه الأبحاث أن تبلغها للكافة هي : أن وحدة الأمة الإسلامية أمر لا ينبغي التفريط فيه ، وأن الإسلام يحتمل كل اجتهاد لا يخل بأصوله ، فارفعوا أيديكم عن الإباضية ، ودعوا مذاهب المسلمين تتعايش ولا تتنازع .

ورغم أن موضوع المؤتمر هو الفقه الإسلامي ، إلا أن الشعارات التي رفعت والآيات التي قرئت ، واللافتات التي وزعت في العاصمة كانت تركز على أمر واحد هو : وحدة المسلمين والدعوة إلى نبذ الفرقة بين أهل الملة .

وهذه المعاني ذاتها ، سجلها منظمو المؤتمر ، في الكراس الذي وزع على الجميع ، وتضمن عناوين البحوث وبرنامج العمل ، ففي المقدمة أشير إلى أن للندوة أهدافاً ستة بينها : تعارف علماء المسلمين ، والسعي لتحقيق الوحدة الإسلامية ، والالتقاء تحت مظلة الإسلام التي تحمي سائر الاجتهادات ، ورأب الصدع ومجاولة القضاء على ما يدعو إلى الفرقة .

ويوم افتتاح المؤتمر ـ التاسع من أبريل ـ خرجت صحيفة عمان اليومية الرئيسية بمقال افتتاحي لأحد مشاهير الكتاب العمانيين ـ حمود بن سالم

السيابي - تحت عنوان (متى يكون في اختلاف العلماء رحمة) ؟ - وفيه دعا إلى (ضرورة تنقية الفقه الإسلامي من الشوائب التي أفرزتها بعض التأويلات الخاطئة) - وفهم أنه يعني بهذه الإشارة مختلف الاتهامات التي رددتها كتب التراث حول سلامة عقائد الإباضية .

وفي موضع آخر من المقال ، أخذ الكاتب على بعض الفقهاء تورطهم في « التسابق والتنافس لاستعراض مناقب مذهبهم ، وتكفير مخالفيهم ، مهما كانت شمس الحق هي سهامهم التي على وجوههم » .. ولم يكن هؤلاء الأخيرون سوى أتباع المذهب الإباضي ، الذين لاحقتهم الاتهامات ، وأفتى الشيخ ابن باز ببطلان الصلاة وراءهم ..

وأيّاً كان الأسلوب الذي اتبع في إخراج الموضوع ، فإن مختلف الشواهد كانت تدل على أن أساس المؤتمر ومرماه هو : تبرئة ساحة الإباضية ورد الاعتبار لهم . وهو هدف مشروع ، وبلوغه مطلوب من قبل كل الداعين إلى وحدة المسلمين ، ولم شمل شراذمهم المبعثرة ، خصوصاً في زماننا الذي يخطط فيه لمستقبل العالم الإسلامي على أساس تفتيته وتقطيع أوصاله ، وتفجير الصراعات المذهبية بين أهله . وما مثل لبنان منا بعيد !

وحتى لا نظلم الشيخ ابن باز ، فإن الإنصاف يقتضينا أن نقر بأن الرجل لم يبتدع ما قاله ولم يختلقه ، وإنما كان في حكمه مستنداً إلى ما ذكرته كتب السلف حسبما ذكرنا توأ . وفي مقدمة تلك الكتب (مقالات الإسلاميين) ، للأشعري - و (الفرق بين الفرق) ، للبغدادي - و (الفصل في الملل والنحل) لابن حزم - و (الملل والنحل) للشهرستاني . وكتاب الأشعري صدر في الربع الأول من القرن الرابع الهجري . أي أن عمره يتجاوز ألف عام . وفيه عديد من الإشارات إلى ضلال الإباضية ، وانتسابهم إلى الخوارج واتهامهم لمخالفيهم بالكفر دون الشرك . وعنه نقل أكثر

لاحقيه ممن كتبوا عن الإباضية ، ولم يتح لهم أن يطلعوا على مؤلفات أصحاب المذهب ، ليتحققوا من مدى صحة تلك « المقالات » .

ومنذ اثني عشر عاماً - في سنة 1976 - صدر في مصر كتاب لأحد فقهاء الإباضية ، هو الشيخ علي يحيى معمر - عنوانه (الإباضية بين الفرق الإسلامية) - وفيه جمع كل مقولات السلف والخلف ، وكافة الاتهامات التي وجهت إلى المذهب ودعاته ، وفندها جميعاً .،وهو يتولى الرد عليها . وقد هدم مقولات الأشعري ، مثبتاً أن فرق الإباضية التي أشار إليها وأسماء الفقهاء الذين ذكرهم ، لا وجود لهم على الإطلاق ، لا في تاريخ الإباضية أو مصنفاتهم - وانتهى إلى أن الأشعري « لا يعرف عن الإباضية شيئاً ، وأن أكثر ما كتبه لا علاقة لهم به ، ولا علاقة له بهم » .

وذهب المؤلف إلى أن الإباضية ليسوا من الخوارج ، غلاتهم أو معتدليهم . وكونهم رفضوا أن يظل الحكم حكراً على قريش ، واعتبروا التحكيم بين علي ومعاوية خطأ ما كان له أن يقع ، فإن ذلك لا يصنفهم ضمن الخوارج . فالإباضية - بنص عبارته - لا يريدون أن ينتسبوا إلى الخوارج ، ولا يحسبون أنفسهم كذلك ، ولا يعتزون بالخارجية ، لسبب بسيط هو : أنهم لا يحكمون على غيرهم من المسلمين بأحكام المشركين ، ولا ينفذون فيهم تلك الأحكام) - (ص 417) .

استشهد الشيخ معمر بما كتبه الدكتور مصطفى الشكعة - صاحب كتاب (إسلام بلا مذاهب) عندما قال إن الإباضية رموا بتهمة الخوارج لأنهم رفضوا القرشية ، أي التزام كون الإمام من القرشيين . وأضاف إن التقاءهم مع الخوارج في هذا الموقف ، إضافة إلى تخطئتهم للتحكيم بين علي ومعاوية ، هو الذي فتح عليهم باب الاتهامات التي لاحقتهم منذ العصر الأموي ، وحتى العصر الحديث .

لقد اتهمهم الأمويون بأنهم خوارج بسبب موقفهم من الإمامة القرشية ، ولاحقوهم بتلك التهمة ، ثم جاء أعوانها فاخترعوا للإباضية عقائد وشنائع بثوها عنها ، فانتشرت بين الناس ، وقامت حائلاً دون أن يفهم بعضهم البعض . واختفى في زحمة النقاش السبب الرئيسي للموضوع ، وطغت تلك وراجت ، حتى تناولتها الأقلام بالإثبات والترسيخ (ص 159) .

ومما استشهد به الشيخ معمر أيضاً ، وهو يبريء الإباضية من الانتساب إلى الخوارج ، ما كتبه الأديب عز الدين التنوخي ، عضو المجمع العربي بدمشق ، أن من دلائل « جهالتنا بعمان وأهلها ، أن السواد الأعظم من العرب والمسلمين يظنونهم من غلاة الخوارج » ... مع أن إطلاق لفظة الخوارج على الإباضية عند واحد من فقهائهم ـ هو أبو إسحاق طفيش ـ يعد من قبيل الدعايات الفاجرة التي نشأت عن التعصب السياسي أولاً ، ثم عن التعصب المذهبي ثانياً ، لما ظهر غلاة الخوارج (ص 133) .

لقد أصر الشيخ معمر على أن الإباضية من أهل السنة وليسوا من الخوارج ، وإلى هذا يذهب أكثر فقهاء الإباضية المحدثين ، إلا أن الاتجاه الغالب بين الباحثين المعاصرين يصنفهم باعتبارهم من معتدلي الخوارج . بهذا يقول الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه عن المذاهب الإسلامية ، والدكتور عوض خليفات أستاذ التاريخ بالجامعة الأردنية ووزير الشباب الحالي ، في مؤلفه (نشأة الحركة الإباضية) .

ومن الطريف هنا أني وجدت أحد الباحثين يضع الإباضية في تصنيف ثالث ، بعيداً عن السنة وعن الخوارج ، فيعتبرهم من فرق الشيعة ، رغم إشارته (!) إلى أنهم ينتسبون إلى عبد الله بن إباض ، الذي وصفه بأنه من زعماء الخوارج والباحث هو الدكتور السيد المطري ، الأستاذ بجامعة الملك عبد العزيز . وعنوان كتابه ، الذي حمل اسم لجنة البحث العلمي بالجامعة

هو : (دراسات في سكان العالم الإسلامي) . وقد أحالنا الباحث في صدد هذه المعلومة إلى كتاب (البلدان الإسلامية) ، الذي صدر في السعودية أيضاً (سنة 1979 م) لثلاثة من كبار الأساتذة المهتمين بالدراسات السكانية في العالم الإسلامي .

. هذا التفاوت في تصنيف الإباضية يعكس جانباً من الالتباس الذي أحاط بمذهبهم وأهله طوال القرون التي انقضت من التاريخ الإسلامي ، وكان سبباً في حيرة بعض الباحثين وتخبطهم . فهم خرجوا فعلاً على الإمام علي ومعاوية بن أبي سفيان ، لكنهم يبرؤون من الخوارج . والتقاؤهم مع الخوارج في الموقف السياسي ، لم يؤثر على التقائهم مع أهل السنة في الموقف الفكري أو الفقهي . وهم ينسبون إلى عبد الله بن إباض ، بينما المؤسس الحقيقي لمذهبهم هو الإمام جابر بن زيد . وهم دائماً كانوا جزءاً من جغرافية الواقع الإسلامي ، لكنهم أسقطوا من الحسبان عندما كتب التاريخ الإسلامي !. وعلى كثرة وفخامة مصنفاتهم الفقهية ، فإنها لم تر النور إلا منذ سنوات قليلة ، عندما أنشأت سلطنة عمان وزارة للتراث القومي ، نهضت بتلك المهمة .

لقد لاحقهم الأمويون عملياً وأدبياً ، منذ وقفوا في وصف المعارضة لهم ، كما ذكر الدكتور الشكعة بحق . وعندما برز عبد الله بن إباض متحدثاً بأسمهم ومناظراً لمخالفيهم ، فإنهم أرادوا به ستر قيادتهم الفكرية الحقيقية ، المتمثلة في الإمام جابر بن زيد (ولد حوالي سنة 20 هجرية وعاش حتى نهاية القرن الأول) . وهو يعد من التابعين المرموقين ، العارفين بكتاب الله ، وباعه لا ينكر في رواية الحديث ، وفي الفتوى ، التي كان يباشرها مع الحسن البصري ، في البصرة وفي غيرها .

وبسبب من تلك الملاحقة ، فإن الإباضية اتجهوا إلى مناطق الأطراف ،

ليأمنوا من بطش الحكام والولاة . فنزح بعضهم إلى ما وراء جبل عمان ، في ركن قصي من الجزيرة العربية .

وهناك أقاموا دولتهم (سنة 132 هـ) التي ما زالت قائمة إلى الآن . وانطلق آخرون منهم إلى الشمال الإفريقي والأندلس . فأقاموا دولة في ليبيا (سنة 140 هـ) استمرت ثلاثة أشهر ، انسحبوا بعدها إلى منطقة جبل نفوسة في أقصى الجنوب . وكذلك فعلوا في الجزائر ، أقاموا دولة استمرت ثلاثين عاماً (160 ـ 190 ☆ هـ) ثم نزحوا إلى وادي ميزاب . واستقروا هناك ولا يزالون . وفي تونس تمركزوا في جزيرة (جربة) . حتى الآن . وفي الأندلس اعتصموا بجزيرتي (ميورقة ومينورقة) ، ثم غادروها إلى الشمال الإفريقي ، بعدما سقطت دولة المسلمين . ومن الإباضية جماعة استقرت في واحة سيوه ، بصحراء مصر . وتعد دار الكتب المصرية مصدراً هاماً لمخطوطاتهم . وفقيههم أبو إسحاق طفيش ، الذي أشرنا إليه ، كان أحد موظفي الدار ، وإن صرف كل جهده لتحقيق تلك المخطوطات ودراستها .

بهذا الاحتماء بالمناطق النائية ، غدت تجمعات الإباضية بعيدة عن الأنظار ، وغائبة عن المعترك السياسي والفكري الذي ارتبط بمقر الخلافة في المشرق العربي . مما ساهم في التجهيل بهم ، فضلاً عن الترويج لمختلف الاتهامات التي ألصقت بهم ، وفي مقدمتها نسبتهم إلى الخوارج وإضافتهم إلى من ضل في فرق المسلمين .

ورغم أن عدد الإباضية الآن قد لا يتجاوز مليونين من الأشخاص ، إلا أن الحركة الإباضية كان لها حضورها في التاريخ الإسلامي ، الذي لم يظهر

☆ في الهامش : الصحيح ان الدولة الرستمية دامت من (160 هـ الى 296 هـ)

بحجمه في مختلف كتب التراث ، وما ظهر منها إما جاء مشوهاً ، أو مبتسراً للغاية . والشكوى من ندرة المعلومات في هذا الصدد ، سجلها أساتذة التاريخ الذين تناولوا الحركة الإباضية ، وفي مقدمتهم الدكتور سعيد عاشور ، والدكتور عوض خليفات .

فموسوعات التاريخ الإسلامي لا تمر على عمان وأهلها الإباضية إلا مروراً سريعاً وخاطفاً . ودورهم في الأندلس غير مذكور على الإطلاق . وعلماء الإباضية لا يشار إليهم في كتب الطبقات . وأشهر تلك الكتب ـ طبقات ابن سعد ـ لم يذكر سوى الإمام جابر بن زيد في عرض مقتضب . ولفت ذلك نظر بعض الباحثين العمانيين ، فقرر مؤلف كتاب (عمان ـ تاريخ يتكلم) ، أن ابن سعد أشار إلى الإمام ابن زيد (رغم أنفه) !

حسناً فعل مؤتمر مسقط ، عندما ركز على فقه الإباضية ، ولم يحْتَفِ بأمر تصنيفهم أو مانسب اليهم من اتهامات في الموقف أو في العقيدة ، فتحديد طبيعة الفقه ومصادره وركائزه كفيل بحسم كل ما ينبني بعد ذلك من استنتاجات أو تأويلات . إذ الخوض في التاريخ لا طائل من ورائه ، والجدل حول رؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ، الذي يقول الإباضية باستحالته ، بينما يقرر آخرون وقوعه ، ويرون المخالفة فيه من قبيل الاجتهاد في شأن العقيدة الذي يستدل به على الضلال .. هذا الجدل يظل من قبيل الثرثرة في شأن عالم الغيب ، التي تضر ولا تفيد . بالتالي ، فقد أصبح الحوار حول منابع أصول الفقه الإباضي هو الاختيار ـ أو الاختبار ـ الصحيح .

من هذه الزاوية ، تلفت أنظارنا في الأبحاث المقدمة ، العناصر والإشارات التالية :

في بحث الدكتور يحيى محمد بكوش (الجزائر) حول مدرسة جابر بن زيد وأثرها في الفقه الإسلامي مسح للظروف التي نشأ فيها ذلك الفقه ، من حيث الزمان والمكان . ذلك أن بيئة العراق ، التي ظهر فيها الفكر الإباضي ، تعرف تاريخياً بأنها مدرسة الرأي والاجتهاد والاستنباط في الفقه الإسلامي ، التي أفرزت عديداً من الأئمة الذين كانوا من كبار التابعين . جابر بن زيد في المقدمة من هؤلاء ، ومعه الحسن البصري وعلقمة بن قيس ، وإبراهيم النخعي .

في الوقت ذاته ، فقد كان لأعلام هذه المدرسة نصيبهم الوافر من علوم الحديث . وثبت أن جابر بن زيد كان كثير الترحال إلى الحجاز ، ولزم عبد الله بن عباس ، حتى عرف أحدهما بالآخر . وقد اعتبر جابر بن زيد أحد أئمة السنة في البصرة ، حتى وثقه جميع نقاد الحديث ، وأجمعوا على عدالته وضبطه . بل إنه اعتبر من رجال أصح الأسانيد . وقد استفتي عبد الله بن عباس مرة في أمر فقال : عجباً لأهل العراق ، كيف يحتاجون إلينا وعندهم جابر بن زيد ، لو قصدوا نحوه لوسعهم علمه .

الخلاصة أن ابن زيد ـ مؤسس المذهب ـ نشأ في عصر كبار التابعين . الذين تحرروا من التقاليد ومن التعصب ، ولم يكن يلزمهم سوى القيود الشرعية المتفق عليها بين أهل الثقة والورع . وكان هذا العصر هو حلقة الوصل بين عصر النبوة والصحابة ، وعصر تكوين المذاهب الفقهية التي ظهرت فيما بعد .

فمدرسة جابر بن زيد هي التي أفرزت الفقه الإباضي ، الذي انتشر مبكراً في عمان والمغرب وحضرموت . ومدرسة إبراهيم النخعي هي التي خرَّجت الإمام أبو حنيفة ومذهبه الذي انتشر من الكوفة إلى أرجاء العالم الإسلامي . وفكر سعيد المسيَّب هو الذي تطور وتأصل من بعد على يد

الإمام مالك ومذهبه المعروف .. وهكذا .

في البحث الذي قدمه الفقيه التونسي الدكتور فرحات بن علي الجعبيري ، حول دور المدرسة الإباضية في الفقه والحضارة الإسلامية ، خلص إلى أن هذه المدرسة سلكت منذ يومها الأول المسلك المتفق عليه في الفقه والاجتهاد ، فاعتبرت مصادر الشريعة الاساسية ، متمثلة في الكتاب والسنة والرأي . وفي ذلك رد على من يدعون أن الإباضية فرقة مبتدعة ـ وبعدما تغيرت هذه النظرة في الدراسات الحديثة ، إلا أن الباحث سجل اعتراضه على إشارات الكتاب المعاصرين إلى أن الإباضية أقرب المذاهب إلى أهل السنة . وتساءل في هذا الصدد : لماذا هذا التصنيف ، بعد أن أثبت أن المذهب الإباضي أسبق المذاهب اعتماداً على السنة اعتماداً كلياً في تأصيل الشريعة ؟

أضاف الباحث إن : أثر العقيدة الإباضية واضح في الفقه ، ويتمثل في اعتبار العمل لا يتجزأ من الإيمان . وفي اعتقاد الخلود لمن يموت مصراً على الكبائر ، ويتجلى هذا في كثرة التحري ، مما جعل الناس يتهمونهم بالتشدد والمغالاة . والفرق واضح بين الذي يجتهد في تحري الحقيقة داخل إطار النص ، وبين الذي يخرج عن النص فيحمله ما لا يتحمل .

انطلق بحث الدكتور إبراهيم عبد العزيز بدوي (جامعة الأزهر) من ذات المنطلق ، في بحثه حول دور المدرسة الإباضية ـ فذكر أن المذهب (الإباضي) ليس مستحدثاً . وإنما نشأ متأصلاً على القواعد الصحيحة . مدعماً بالأصول الواضحة الثابتة . فبالنظر والتتبع ، لا يوجد في فقهه ما يخالف الكتاب ولا السنة النبوية ، ولا عموم الأصول التي اتفق عليها المسلمون جميعاً .

وأضاف إن الأصول ثابتة وراسخة لا خلاف فيها . أما ما كان من

خلاف في بعض المسائل الفرعية ، فإنما يرجع إلى فهم النصوص من الكتاب والسنة ، واستخراج الأحكام الشرعية العملية منها . وهذا لا يؤثر على نشأة الاجتهاد في شيء ولا في علم المجتهد .

في موضع آخر من بحثه قال : بالرجوع إلى فقه الإباضية ، تجد أن المسائل التي خالفوا فيها الحنفية مثلاً ، اتفقوا فيها مع الشافعية أو المالكية أو الظاهرية . وما خالفوا فيه مذهباً وافقوا فيه الآخر .

أما المسائل النادرة التي خالفوا فيها جملة أهل السنة ، تجد فيها إما رأياً واحداً عندهم ، أو رأيين أحدهما خاص بهما ، والآخر يتفق مع مذهب من مذاهب أهل السنة . وإذا كان للإباضية رأيهم المنفرد في بعض الحوادث التي يمكن حصرها ، فإنك تجد الاختلاف بين مذاهب أهل السنة أنفسهم في كثير من الحوادث والفروع التي لا يمكن حصرها .

لقد تابعت مناقشات مؤتمر مسقط ، الذي عقد في رحاب جامعة قابوس . وكان أهم ما لا حظته أن جل الجدل ثار حول مختلف الموضوعات الأخرى التي تناولتها البحوث ، بينما كان الاتفاق عاماً حول المحاور الأساسية لما تعلق منها بالفقه الإباضي ، حيث لم يجادل فيها أحد ، ولم يختلف .

وهو ما يعني أننا كسبنا جولة مهمة في معركة وحدة الصف الإسلامي .

الحمد لله .

خطوتان إلى الأمام

هذه عناوين هامة ، أرشحها لصدارة أحداث العالم الإسلامي في سنة 1988 : دعا مؤتمر الفقه في عمان إلى فض الاشتباك بين

مختلف المذاهب الإسلامية ـ طالب ممثلوا فقهاء الأمة بتجميد صراعات القرن الهجري الأول وإغلاق ملفات الفتن والأحزان التي شهدتها تلك المرحلة ـ أوصوا بمداومة اللقاء بين فقهاء المذاهب الإسلامية بعيداً عن المنافسات المذهبية والعصبية ـ حثوا أهل العلم على دراسة المسائل المختلف عليها في فقه المذاهب الثمانية وتحقيق أدلتها والترجيح بينها ، دون التزام بمذهب معين .

بعدما بدد المؤتمر مختلف الغيوم والشبهات المثارة حول الفقه الإباضي ، وبرأهم من تهمة تكفير مخالفيهم ، وقرر في إحدى التوصيات أنهم يستمدون فقههم من الأصول الشرعية المعتمدة ، ويجلون كل الصحابة ويحترمون مقامهم ، وطالب في توصية أخرى بإخراج كنوز الفقه الإباضي وإتاحتها للباحثين ... بعدما حقق المؤتمر هذا الإنجاز ، تعرض للمحيط الإسلامي العام ، وسجل تلك التوصيات التي مررنا بها ، والتي تشكل منعطفاً مهماً على صعيد وحدة الصف الإسلامي ، إذا أخذت مأخذ الجد .

لا يستطيع المرء أن يذهب بعيداً في التفاؤل ، ليحسب أن عهداً جديداً بدأ في العلاقة بين المذاهب الإسلامية ، أو أننا بصدد بروتوكولات لفقهاء المسلمين ، تحدد خطى المستقبل وترسم معالمه . فعهدنا بتوصيات المؤتمرات العربية أن القول فيها منفصل عن الفعل ، وأن الضجيج فيها أكثر من الطحن .

ولئن شككت تلك الخلفية في مدى فاعلية توصيات مؤتمر عمان ، لكنها لا تقلل من أهميتها الفكرية والنظرية على أية حال . والأهمية منصبة على الموقف الذي سجله المؤتمر ، والذي أحسب أن أجلّ ما فيه هو المبدأ والمنهج . أعني مبدأ فتح الأبواب بين مختلف المذاهب ، ومد الجسور

بين أتباعها من المسلمين ، من أجل تحقيق التقارب والتفاهم ، لا التنابذ والتخاصم . كما أعني بالمنهج تجميد صراعات الأمة التي خلت ، وإغلاق ملفات الخلافات التي لم يعد لإحيائها معنى أو جدوى ، سواء تلك التي تتعلق بقرشية الحاكم أو بإمكانية رؤية وجه الله يوم القيامة ، أو بطبيعة دور الإمامين جابر بن زيد وعبد الله بن إباض في رفض التحكيم بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أو معاوية بن أبي سفيان ، أو حتى تلك التي تتعلق بأحقية الخلافة بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام ، وهل تكون لعلي أم لأبي بكر ومن بعده عمر بن الخطاب ؟!

لقد هيمنت على بحوث المؤتمر ومناقشاته وتوصياته روح التوحد والرغبة في التلاقي والانطلاق نحو المستقبل لا الاستغراق في حسابات الماضي . وتلك أمور كانت كفيلة بتوفير أسباب النجاح للمؤتمر . ولعلها تنبهنا في الوقت ذاته إلى حقيقة هامة في شأن العلاقة بين مختلف المذاهب الإسلامية ، أشرت إليها في معالجات سابقة لهذا الموضوع الدقيق . وهي أن بين مذاهب المسلمين المعتبرة عديداً من مواضع الاختلاف ، كما أن بينها عديداً من نقاط الاتفاق ، والتعامل مع القضية من مدخل الاختلاف أو من باب الاتفاق وثيق الصلة بالموقف الأساسي للباحث ، وما إذا كان ساعياً إلى وحدة الأمة وتأليف قلوب أبنائها أياً كانت مللهم ونحلهم ، أم أنه مشغول بهدف آخر مذهبي أو عنصري أو سياسي ، يتقدم في الأولوية على وحدة الأمة والتئام صفها .

وقد كان واضحاً منذ بداية مؤتمر مسقط أن المشاركين فيه دخلوا إلى قاعة المؤتمر من باب الاتفاق وليس من باب الاختلاف ، وبدا هذا الموقف أكثر ما بدا في الجلسات التي عرضت خلالها الأبحاث المتعلقة بالمذهب الإباضي ، رغم أن الموضوع يحتمل

جدلاً طويلاً لمن أراد أن يجادل أو ينازع فالتاريخ ـ كالفقه ـ حمّال أوجه .

حقاً ، كان موقف الفقهاء المشاركين يتسم بقدر كبير من الإحساس بالمسؤولية والرغبة في التلاقي . كما ذكرت . لكن المرء لا يستطيع أن يسقط من الحسبان الدور الذي لعبه المناخ السياسي في صياغة ذلك الموقف . فالدول التي شاركت في المؤتمر بحضور مكثف ، تربطها بسلطنة عمان علاقات حميمة في الأساس . فتمثيل الأزهر وجامعته بأربعة عشر عضواً يتقدمهم الإمام الأكبر ، إن عبر عن عناية الأزهر المعهودة بالقضية وبوحدة الأمة ، إلا أنه يعكس أيضاً مدى الحرارة التي تتسم بها العلاقات بين مصر والسلطنة . وهو ما ينطبق أيضاً على الوفد الأردني ، الذي ضم اثنين من الوزراء علاوة على المفتي وعميد كلية الشريعة . والذي كان حجم التمثيل فيه معبراً عن خصوصية العلاقة بين الأردن والسلطنة .

ولا غضاضة في ذلك بأي حال . فاستثمار المناخ السياسي لتحقيق التقارب بين مذاهب المسلمين ، أسلوب مشروع لبلوغ هدف مشروع . وهو أمر نقبله ونحبذه ، كما أننا قبلنا وحبذنا فكرة التقارب بين السنة والشيعة الاثني عشرية ، التي ولدت في مصر إبان الأربعينيات ، وقيل إنها ولدت في ظل التقارب السياسي بين البلدين ، الذي نشأ في أعقاب المصاهرة التي قامت بين شاه إيران وملك مصر السابق ، حيث عقد الأول قرانه على شقيقة الثاني !.. وقدر لمسيرة التقريب أن تستمر حوالي ربع قرن بعد ذلك ، بينما فشلت الزيجة بعد سنوات قليلة !

وما يهمنا في هذا الشق أن الخلافات المذهبية بين فرق المسلمين

تتأثر سلباً وإيجابياً بالظروف السياسية ، ناهيك عن أن الخلاف السياسي حول قضية الإمامة ، كان الشرارة الأولى التي أدت إلى تقسيم المسلمين في القرن الهجري الأول إلى سنة وشيعة وخوارج ، بالتالي ، فليس صحيحاً دائماً أن الخلاف المذهبي هو كله شأن عقيدي ، لأن للخلاف السياسي دوره الذي لا ينكر ، في الماضي وفي الحاضر أيضاً . وليست بعيدة عنا تلك المحاولات التي تبذل الآن لتفجير عناصر الصراع المذهبي بين السنة والشيعة ، مستثمرة المناخ السلبي الذي أفرزته الحرب العراقية الإيرانية .

قلت إن أهم ما في توصيات مؤتمر عمان هو المبدأ التوحيدي الذي انطلقت منه ، والمنهج العملي الذي دعت إليه في تجاوز الخلاف والارتفاع فوق ما هو عقيم من أسبابه .

وتحت كل من العنوانين هناك الكثير مما ينبغي أن يقال ، سواء لإثراء لغة الخطاب الإسلامي المعاصر ، أو لتصحيح صيغة الأداء من جانب المشتغلين بالعمل الإسلامي . ذلك أن المرء يكاد يفتقد المنطق التوحيدي في الخطاب الإسلامي الذي تتعدد منابره وأصواته في زماننا . فضلاً عن أن الأداء الإسلامي ، ممثلاً في بعض فصائله الكبيرة ، لم يستوعب بعد فكرة (تجاوز المراحل) ، سواء تمثلت في عملية تجميد الصراعات العقيمة أو إغلاق الملفات القديمة .

وقد أزعم أني أحد الذين شغلوا أنفسهم بالأمرين معاً منذ سنوات . فلي في قضية وحدة الصف الإسلامي أبحاث وكتابات متواضعة ، قدمت لبعض الندوات ، أو نشرت في عدد من المجلات الثقافية . كان آخرها ما نشرته لي مجلة (العربي) التي تصدر في الكويت ، في حلقات استمرت سبعة أشهر تحت عنوان : (إشكالية الآخر في التفكير الإسلامي) . وقد عالجت فيه

علاقة المسلمين بالعالم الخارجي ، وبغير المسلمين في داخل ديارهم ، وبالآخر السياسي.(نظام الأحزاب والمعارضة) ، أو بالآخر المذهبي ، الذي يعنينا أمره الآن .

بالتالي ، فما قيل حول العلاقة بين مذاهب المسلمين ، إذا كان قد حقق مصلحة أكيدة ـ على الصعيد الفكري ـ فإنه أيضاً صادف هوى في نفسي . من حيث إنه أحد مداخل المشروع الحضاري الإسلامي ، الذي ندعو إليه ونحلم به . وهو المشروع الذي يتجاوز الحركة والمذهب والعرق ، ويطرح نفسه كصيغة للمستقبل ، تظلل الجميع ، بمختلف مذاهبهم ودياناتهم ، ومدارسهم الفكرية والسياسية . وإن كان في التطبيق يخضع لسنن النمو الطبيعية ، مبتدئاً بالوطن ، ومنتهياً بالناس كافة ، ومارّاً بالأمة العربية ، ثم الأمة الإسلامية .

في ظل هذا المنطق فإنه قد لا يكون مفهوماً أن نبادر إلى مناقشة وحدة الأمة الإسلامية بينما قضية الوحدة الوطنية لم تستقر بعد في صيغة متفق عليها بين مختلف الأطراف . وفي إحدى الندوات التي شهدتها وطرح فيها هذا الموضوع ، قال أحد الباحثين اللبنانيين مستدركاً : إن هناك من يقفز إلى الحديث عن الوحدة الإسلامية ، بينما نحن في بيروت نواجه مشكلة حادة في تحقيق الوحدة بين شارعين اثنين في المدينة الواحدة !

وحتى لا يحدث مثل هذا الالتباس ، فمن المهم أن يكون واضحاً أن قضية الوحدة الوطنية في كل قطر هي ما ينبغي أن يحتل المقام الأول ـ بلا منازع ـ في أولويات الخطاب الإسلامي ، لأسباب بديهية أحسب أنها ليست بحاجة إلى شرح . بالقدر نفسه ، فإننا ننبه إلى أن حديثنا ـ فيما نحن بصدده الآن ـ ينصب على وحدة الصف الإسلامي وليس عن دولة إسلامية

واحدة . أي أننا نستخدم كلمة الوحدة بمفهومها الاصطلاحي وليس الدستوري . ذلك لا ينبغي أن تتداخل وحدة الصف الإسلامي مع مفهوم وحدة الوطن ، عندما تتعدد الانتماءات المذهبية في الوطن الواحد ، وهو الحاصل في العديد من دول الخليج وشبه الجزيرة العربية والعديد من مجتمعات المسلمين في آسيا ، وشبه القارة الهندية في مقدمتها .

وإذا انصرف حديثنا هنا إلى وحدة الصف الإسلامي ، فذلك لا يمثل دعوة إلى إعادة ترتيب الأولويات ، وإنما هو يعكس - فقط - تسليط المزيد من الأضواء على قضية طرحت نفسها على الساحة ، وبحثت في مؤتمر فقهي كبير ، وعولجت بقدر ملحوظ من التوفيق والتسديد .

وفضلاً عن ذلك ، فهي فرصة للحوار حول مشروع التصور الذي عرضته للمناقشة في أكثر من منتدى فكري ، حول تلك القضية الدقيقة التي يلوح بها بين الحين والآخر ، لتكون سبيلاً إضافياً إلى المزيد من الشرذمة والتفتت .

في صدد الموضوع ننبه إلى أمرين :

- أولهما أن هذا الذي ندعو إليه ليس ابتكاراً ولا ابتداعاً . ولكنه حلقة في مسيرة بدأها آخرون ، ممن التقوا على دعوة التقريب بين المذاهب ، وعملوا لها ، منذ نصف قرن من الزمان ، وفي مقدمتهم بعض علماء الأزهر ونفر من أعلام العمل الإسلامي في مصر . وبعضهم لا يزال حياً إلى الآن ، في مقدمتهم الشيخ عبد العزيز عيسى ، مقرر لجنة التقريب سابقاً ووزير الأوقاف لاحقاً . ومن السابقين في هذا الحقل أيضاً ، الشيخ محمد الغزالي ، الذي سجل موقفه ذاك في كتابه (دستور الوحدة الثقافية

الإسلامية) ، وفيه قدم مشروعاً من أربع نقاط محددة ليكون أساساً لما أسماه بالتصالح والإخاء بين السنة والشيعة .

ـ الأمر الثاني أن الدعوة إلى وحدة الصف ، لا يراد بها دمج مذاهب المسلمين في فرقة واحدة ، ولا حتى إلغاء المذهبية . وإنما هي تستهدف بالدرجة الأولى توفير سبيل للتعايش الكريم بين أتباع المذاهب في غير خصومة أو تعصب ، والتعامل مع هذه المذاهب بحسبانها مدارس فكرية ، وليست « ميليشيات » متناحرة . وهي تستهدف أيضاً فتح الأبواب أمام أهل العلم من كافة الأطراف ، للتلاقي ومواصلة الحوار ، لتصحيح المعارف والمعتقدات .

ودون الدخول في التفاصيل ، فإنني أحسب أن السعي إلى وحدة الصف الإسلامي ينبغي أن يميز بين فرق تتفق في أصول الاعتقاد وتختلف في الفروع ، وهي التي يتعين علينا أن نركز جهود التوفيق والتقريب في نطاقها . وفرق أخرى تدعي انتماءً للإسلام وقد يمتد اختلافها في الأصول ، وهذه ينبغي ألا يفرط فيها حتى لا توظف لصالح الغير ، وإنما يتم التعامل معها على أساس سياسي وحضاري . وفي كل الحالات فإن فض الاشتباك بين هذه المذاهب ينبغي أن يسبق أي دعوة للحوار أو التقارب .

إذا حاولنا تنزيل هذه الفكرة على الواقع ، فقد نتدرج بالدعوة إلى وحدة الصف على النحو التالي :

ـ مستوى يوحد عنده الصف السّني ، بالأخص في الجنوب المتعلق بالحرب المستمرة التي يشنها السلفيون على المتصوفة .

ـ مستوى يتحقق في ظله التعايش والحوار وحسن الجوار بين المذاهب التي قلنا إنها لا تختلف مع أهل السنة في الأصول ،

أو من يسمون بأهل القبلة ، وهم الشيعة الاثني عشرية أو الجعفرية ، والزيدية في اليمن ، والإباضية في عمان والشمال الإفريقي ، وقاديانية لاهور بباكستان ، الذين لا يؤمنون بنبوة غلام أحمد القادياني .

ـ أما الجماعات التي تنسب نفسها إلى الإسلام ، وتختلف مع أهل القبلة في بعض الأصول ، فصياغة العلاقة معها تحتاج إلى مناقشة وبحث جادين . فلا يقر ما فسد من معتقداتهم ، مع التفرقة بين ما يمكن أن تحاسبهم عليه الأمة الإسلامية ، وما ينبغي أن يوكل حسابه إلى الله سبحانه يوم الدين . ثم يقبلون بعد ذلك كأطراف في الواقع الإسلامي . ويدخل في نطاق هذه الجماعات : البهرة والإسماعيلية والقاديانية الآخرون ، والنصيرية والدروز . وهي طوائف وفرق تتركز في شبه القارة الهندية ، وفي سوريا ولبنان ، وفي بعض الدول الإفريقية (جنوب إفريقيا في المقدمة) .

وفي ترتيب الأولويات ، فأحسب أن المستويين الأول والثاني يحتلان أولوية خاصة ، وإن وحدة صف أهل السنة ، ثم وحدة أهل القبلة ، من أكثر الأمور حيوية في زماننا . فضلاً عن أن المشروع الإسلامي لا يستطيع أن يسقط أو يلفظ أولئك المنسوبين إلى الإسلام ـ وعددهم بين سبعة وعشرة ملايين ـ وإنما يتعين على أهل النظر أن يتوصلوا إلى صيغة مناسبة للتعامل مع تلك الملايين ، بحيث تحتوي تحت مظلة الإسلام في نهاية الأمر .

من يعلق الجرس في رقبة القط ؟

الأمر ميسور ـ من الناحية النظرية ـ فيما يتعلق بوحدة صف أهل القبلة ، أهل السنة وأضرابهم . وتوصيات مؤتمر عمان تفتح الباب واسعاً

للتقدم في ذلك الاتجاه . وكما حسم الأمر بالنسبة للإباضية ، فما الذي يمنع من حسمه بالنسبة للزيدية ، أو الشيعة الاثني عشرية ، طالما أن دعوة التصالح والتفاهم قد وجهت وأعلنت على الملأ .

وإذا عقد مؤتمر الفقه بعمان ندوات دورية ، فليته يواصل مسيرته ويخصص بنداً في جدول أعماله في كل مرة لتحقيق المصالحة والإخاء المنشودين مع بقية أهل القبلة ، جماعة تلو الأخرى . وسلطنة عمان مؤهلة للقيام بهذا الدور الجليل ، لأسباب موضوعية مفهومة ، سواء فيما يتعلق بالزيدية أو بالشيعة الاثني عشرية .

والمؤكد أن الأزهر يستطيع أن يؤدي رسالته التقليدية في هذا المجال . وإن ألقى مجمع الفقه الإسلامي بجدة بثقله في هذه العملية ، فخير وبركة . وإن بادرت إليها أي منظمة أخرى معنية من بين منظمات المؤتمر الإسلامي الستة عشر ، فإنها ـ بهذه المهمة فقط ـ ستدخل التاريخ .

ولسنا مطالبين بأن نستكمل مختلف الحلقات والتفاصيل في سيناريو المشروع . إنما يعنينا أن ينتبه الجميع إلى أن تبرئة الإباضية هي بداية الرحلة وليست منتهاها ، وإن قضية وحدة الصف الإسلامي مسؤولية تنتظر من ينهض بها . وهي معلقة في رقاب كل العاملين في الحقل الإسلامي . وإنجازها يعد خطوة مهمة باتجاه إنجاز المشروع الإسلامي .

لقد علا صوت العقل وتجلى التسديد في دعوة المؤتمر للمسلمين جميعاً لأن يواجهوا المستقبل على أساس من دعم الأصول المشتركة ، وعلى مرونة وتسامح في شتى الفروع ، معتبرين ما وقع في القرن الهجري الأول حدثاً تاريخياً فحسب ، ولا يسمح

بامتداده إلى حاضر المسلمين ومستقبلهم ، بل تجمد تجميداً كلياً من الناحية العملية .

تلك هي الدعوة إلى تجاوز المراحل ، التي أشرت إليها قبل قليل ، بحسبانها من أهم ما صدر عن المؤتمر . فهي ليست فقط دعوة إلى التخلص من المرارات والأحزان القديمة ، ولكنها أيضاً دعوة إلى صرف الجهد من أجل الانعتاق من أسار الماضي ، والتوجه بكل الجهد إلى صياغة الحاضر والمستقبل . وفي ظل ظروف كالتي نمر بها ـ والحال فيها معلوم ويغني عن كل سؤال ـ فإن الانشغال بالماضي وإحياء صراعاته ، يعد جريمة لا تغتفر . وهو تعبير عن خلل منكور في الرؤية ، وإشهار علني للعجز عن التعامل مع الحاضر والمستقبل .

لتبق دروس التاريخ ، ولتغلق ملفات وقائعه وأحداثه ، خصوصاً تلك التي تثير جدلاً عقيماً ، لا يقدم ولا يؤخر . وهو مما يدل في نطاق (العلم الذي لا ينفع) ، الذي كان النبي عليه الصلاة والسلام يستعيذ بالله منه . .

وداء الاشتغال بمعارك الماضي أصيب به بعض أهل المذاهب ، بقدر ما أصيبت به أشهر الحركات الإسلامية المعاصرة ، فكما أن الأولين لم يتوقف جدلهم حول أحقية الإمام علي في الخلافة بعد وفاة النبي ﷺ ، وعدم شرعية خلافة أبي بكر ، رغم أن الفصل في استحقاق أحدهما دون الآخر لن يغير من شيء ولن يضيف شيئاً . كذلك الحركات الإسلامية ، التي ما زالت مشغولة بتصفية الحساب مع الحقبة الناصرية ، والخوض في تفصيلات ما جرى في الخمسينيات والستينيات .

هذا التطلع إلى الخلف لا يبدد الطاقات في غير طائل فقط ، ولا يحجب الرؤية الصحيحة للحاضر والمستقبل فقط ، ولكنه يعوق النمو أيضاً !

وكما أفسدت ملفات الماضي العلاقة بين أهل المذاهب الإسلامية ، وخسر الجميع الكثير بسبب ذلك الإفساد ، ودفعت أمتنا ثمناً باهظاً لذلك كله . كذلك الحال مع الحركة الإسلامية ، التي أدى تركيزها على ملفات الماضي وتجديدها الحديث عن الأمة التي خلت ، إلى خسارتها لقطاع عريض من المثقفين والشبان ، الذين تعلقوا بمرحلة المد القومي واعتزوا بها ، في حين لم تتأثر هويتهم ولا أرضيتهم الإسلامية . وهي بهذا التركيز ، ألحقت بمسيرتها ضرراً آخر ، من حيث أنها شغلت عن الإبداع الفكري الذي يخدم المستقبل ، بتصفية حسابات الماضي .

وبسبب من عقد الماضي ورواسبه ، فإن بعض الإسلاميين اشتبكوا في معارك غير مبررة مع القوميين ، حتى تصور بعض غلاة الإسلاميين في الأرض المحتلة أن معركتهم ضد القوميين أهم من معركتهم ضد الإسرائيليين . وفي العام الذي سبق الانتفاضة ، فإن جامعتي بير زيت وغزة ، شهدتا معارك محزنة بين الطرفين ، لابد أنها أثلجت صدور الإسرائيليين كثيراً !

ولم يقف الأمر عند حدود خسارة الإسلاميين لقطاع عريض من العروبيين ، وإنما ترتب على تلك الخصومة أن أصبح العروبيون أقرب إلى معسكر اليسار الماركسي ، في حين أن مكانهم الطبيعي هو قلب معسكر الوسطية الإسلامية .

ومن يطالع كتاب الدكتور عصمت سيف الدولة ، الذي صدر في عام 1986 م ، بعنوان (عن العروبة والإسلام) ، يكتشف حجم وعمق الحضور الإسلامي في صلب التيار العروبي ، الذي يعد الدكتور سيف الدولة أحد رموزه البارزة . ذلك أن الكتاب من أوله إلى آخره ، يقف بالكامل على أرضية الإسلام ، ويوجه نقداً مفحماً ومريراً لكافة أطروحات المعسكر

العلماني الذي ما انفك يحاول الاستيلاء على التيار العروبي ، ساعياً إلى توهين صلته بالإسلام ، خصوصاً من خلال الترويج لمقولة فصل الدين عن الدولة ، التي يصف الدكتور سيف الدولة دعاتها بأنهم (منافقون) . وقد فنّد مقولتهم ، وهدمها ، في فصل مطول من الكتاب ، استغرق أكثر من 150 صفحة ، عنوانه : (المنافقون) !

(إن بين العروبيين والإسلاميين في بعض دول الخليج صراعاً وحشياً مكتوماً ، تستخدم فيه أساليب الإبادة المعنوية والتشريد وقطع الأرزاق ، وتدور رحاه في عدد من الوزارات التي تناوب المسؤولية فيها هذا الطرف أو ذاك . وتلعب الحسابات والمرارات القديمة دوراً مهماً في تفجير ذلك الصراع ، الذي يصيب غرمه الجميع بدون استثناء ، وهو أمر محزن بكل المقاييس .

إن الدعوة إلى تجاوز الصراعات القديمة وإغلاق ملفاتها ، والانصراف بعقول وقلوب مفتوحة إلى الحاضر والمستقبل ، هي مطلب لازم تقاس به إيجابية وصحة مناخ العمل العام . وهي ألزم بالنسبة للإسلاميين الذين لحقت ببعضهم مظالم فادحة ، لم يستطيعوا ابتلاع مرارتها ولا إغلاق ملفاتها . حتى بدا أن هناك من شغلته جراح « الحركة » عن آفاق المشروع الإسلامي ، الذي هو الأصل والأساس .

إننا بصدد دعوتين مهمتين ، تمثلان خطوتين إلى الأمان ، في زمن عنوانه (التقهقر) !

خطاب مفتوح ...

إلى السيد وزير الشؤون الدينية[1]

بقلم :دكتور محمد ناصر .

اسمحوا لي سيادة الوزير أن أرفع إلى مقامكم العالي هذه الملاحظات التي أود الا يمنعكم مقامكم المسؤول من قبولها ان اقتنعتم بها ، كما ارجو ان لا يمنعني مقامي مواطنا بسيطا من ابدائها . ولم يجرأني على ذلك الا حسن الظن فيكم بأنكم سترحبون بهذه الملاحظات لانها دليل اصغائنا لتوجيهاتكم ، واهتمامنا بنصائحكم .

فقد تتبعت مثل غيري بكل اهتمام ما جاء في حديثكم الصحفي المتلفز يوم (89/5/12) الذي قصدتم فيه ولا شك الى التوجيه أكثر مما قصدتم فيه إلى الاعلام .

والذي دفعني الى كتابة هذه الاسطر امران :

☆ **أولا :** ان الحديث صادر عن شخص جزائري مسؤول يتولى مهمة من أغلى وأحرص ما يعتز به كل مسلم غيور ولا شك ، الا وهي الشؤون الدينية ، اذ لو صدرت عن شخص آخر ما كنا لنلتفت اليها بهذا الانتباه ، بل وما كنا لنعلق عليها ، وما أكثر ما سمعنا وما قرأنا هذه الأيام من الآراء المتجاهلة للتاريخ والواقع .

☆ **ثانيا :** ان موضوع الحديث أو بالأحرى جزء منه يمس قضية من أخطر القضايا التي تحل من قلوب المسلمين ـ ولا سيما في عصر الصحوة

---

(1) وزير الشؤون الدينية الجزائري سابقا .

والرجوع إلى الذات ، شغافها ، وتتبوأ من مهجهم سويداءها . كيف لا وهي تتعلق بموضوع المذاهب الفقهية الاسلامية .

إذا فأهمية الحديث والمتحدث هما اللذان دفعاني إلى تتبعه والتعقيب عليه انطلاقا من أحساسي الاسلامي عاملا بقول الرسول الكريم ﷺ (كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته يوم القيامة) . ومسؤولية المواطن لا تقل خطرا عن مسؤولية الراعي ، وابداء النصح من الرعية لا يقل وجوبا عن ابدائها من الراعي ، فلا خير فينا ان لم نقلها ، كما انه لا خير فيكم ان لم تقبلوها .

ويعلم الله ويشهد على اني لا انطلق في ملاحظاتي هذه من تعصب لمذهب معين ، ولا أفصح عن عاطفة آنية ، عابرة سياسية كانت أم دينية ، ولو انه يؤلمني حقا أن تطغى السياسة في عالمنا الاسلامي على ديننا بمثل هذا الأسلوب ونحن نشيد صرح وحدتنا الوطنية على أسس قوية سليمة ان شاء الله .

والواقع أقول اني فوجئت للأسف الشديد كما فوجيء الكثيرون من المواطنين مثلي ببعض ما جاء في حديثكم ذاك . والمفاجأة أحيانا تهز النفس ثم ما تلبث ان تنساها ان كان أمرا تافها عابرا وأحيانا تهزها ولكنها تبقى راسخة في الاعماق ان تعلقت بأمر خطير كهذا . ومرد المفاجأة أو الاحساس بالدهشة هو رؤيتكم الى المذاهب الاسلامية لبعضها دون بعضها الآخر ، وتجاهلكم الواضح لبعض الأئمة المجتهدين الذين تلقوا علمهم عن عائشة أم المؤمنين وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، وهم لم يقلوا ورعا ولا اجتهادا عن غيرهم من أئمة الاسلام الاعلام .

ولا أحسب ان ذاك من فلتات اللسان أو من غفلات الجنان يغض

الطرف عنها ، فان الحديث في أمثال هذه المواقف يكون مهيأ مكتوبا كله أو بعضه ، معدا له متدبرا في أبعاده وعواقبه .

والحق أقول يا سيادة الوزير ان هجومكم على التمذهب بغير مذهب الامام مالك ، هجوم عنيف لا مبرر له في اعتقادي ، قد يكون إحساسي هذا صدر عن عاطفة أو قصور فهم مني وما أبرىء نفسي من القصور والتقصير ولكن الذي لمسته من مواطنين مثقفين كثيرين غيري أو بعض ما قرأته من تعقيبات على حديثكم اكدت لي اني لست وحدي في هذا الاحساس ولا ذاك الفهم .

فقد خيل الي انكم تعالجون قضية التطرف الديني والانتماء المتحمس الى مذهب معين بتحمس مثله ، فقد يتسامح مع هذا التحمس البين وهو صادر من مواطن بسيط ، ولكن لا أظن بأنه قد يتسامح معه وهو يصدر عن شخص مسؤول في مثل مقامكم الخطير .

وأنا أقدر ان الذي دفعكم الى هذا حرصكم الشديد على الوحدة الوطنية فذلك أمر يعز على نفوسنا عزة ديننا عليها ، ولكن ليسمح لي السيد الوزير أن أعبر عن احساسي مسلما قبل أي اعتبار آخر عاملا بقول الرسول الكريم (الدين النصيحة قلنا لمن يا رسول الله قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) . أو كما قال صلوات الله عليه . هذه ملاحظة أولى .

ثانيا : يخيل الي أن السيد الوزير وهو يعالج هذه القضية الخطيرة لم ينطلق من الواقع المعيش في الجزائر . أو الواقع التاريخي والحضاري والسياسي بكل أبعاده وحدوده وآفاقه ، فهو قد تجاهل تماما أحد المذاهب المعروفة والمشهورة في الجزائر وهو المذهب الأباضي الذي يعد أول مذهب اسلامي يؤسس أول دولة جمهورية جزائرية تطبق بحق العمل بكتاب الله

وسنة رسوله وهذا بشهادة المؤرخين وغير المؤرخين مسلمين وأجانب قديما وحديثا ، وقد شهد لهذه الدولة المسماة الدولة الرستمية بهذه الميزة الممتازة كل الذين كانوا يعيشون تحت لوائها ، ويتفيئون ظلال أمنها وازدهارها ، ولا أدل على ذلك من أن يكون المؤرخ الذي شهد لها بذلك يتمذهب بغير مذهب الدولة الرسمي ان صح التعبير ذلكم هو المؤرخ ابن الصغير (المالكي) على قول أو (الشيعي) على قول آخر .

فهل من الانصاف أن يتناسى السيد الوزير جزءا من حضارتنا نعتز به جميعا ، أو يتجاهل أحاسيس فئة عريضة من الجمهور الذي يستمع اليه ، له كامل حقوق المواطنة . مع ان مذهبهم لا يختلف عن المذاهب الاسلامية الأخرى عقيدة وفقها ، قولا وعملا .

والعجيب في الأمر ان مثل هذا الموقف يجيء بعد شهور فقط من انعقاد ملتقى الفكر الاسلامي حول وحدة المسلمين ، هذا الملتقى الذي استمعنا فيه الى محاضرات قيمة نسأل الله أن يؤجر أصحابها الذين كانوا يسعون صادقين الى لم شعث المسلمين المبدد ، واذكاء القوة في ريحهم الذاهبة يمينا ويسارا ، وكان للسيد الوزير فضل الاشراف عليه وتوجيهه وحسن قيادته . فما الذي جعل السيد الوزير يتجاهل في الحديث المتلفز للجزائريين اليوم ، ما كان ملتقى اسلاميا عالميا بالأمس ؟! .

ثالثا : أنا لا أنكر على السيد الوزير تحمسه الشديد لمذهب الامام مالك امام دار الهجرة (رضوان الله عليه) فذلك من حقه ولا أظن أن أي مسلم واع بحدوده ومسؤوليته ينكر عليه ذلك . ولكن الذي لم أفهمه هو تعليله - وهو يلح على التمسك بمذهب الامام مالك وعدم الركون الى

المذاهب الوافدة الأخرى ـ احقية التمذهب بمذهب الامام مالك . لأنه هو المذهب (الذي اعتنقه أجدادنا) . ان هذا التعليل ـ وليسمح لي السيد الوزير بذلك ـ يوحي بأن أعتناق المسلم لمذهب فقهي ما ، يلزمه التشبث به وحده دون النظر إلى غيره من المذاهب الاسلامية الأخرى ، مما يوهم بأن التمذهب بمذهب فقهي ما ، يصبح عندئذ في حكم العقيدة يحاسب المسلم عليها افراطا أو تفريطا . أو لا يرقى التمذهب عندئذ الى درجة القول ﴿ انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون .. ﴾ .

أليست المذاهب الفقهية كلها دون استثناء مذاهب اجتهادية تلتقي في الاصول وتختلف في الفروع ؟ هذا الاختلاف نفسه دليل واضح على سماحة الاسلام وسعة أفقه ويسره وهو اختلاف رحمة لا اختلاف نقمة ؟ حتى المذاهب الأربعة ـ التي قصر السيد الوزير نظره على ذكر أئمتها بأسمائهم دون غيرهم ـ ألا يوجد أختلاف واضح في الفروع بينها مما يجعلنا أحيانا نتساءل لم احتكرت وحدها اذا تسمية أهل السنة والجماعة ؟ .

أليست هذه التسميات من وضع عصور التشتت والتحزب والتفرق ؟ أليست انعكاسا لمراحل تاريخية كان السلاطين فيها يتخذون من التشيع لهذا المذهب أو ذاك وسيلة قهر وتسلط . وليست محنة الأئمة أبي حنيفة أو ابن حنبل أو مالك أو الشافعي أو جابر بن زيد بخافية لمن يقرأ تاريخ الاسلام .

ان المطلع على الحضارة الاسلامية في تطورها الايجابي والسلبي معا يدرك كيف ساعدت العوامل السياسية على انتشار المذاهب الفقهية فالعوامل التي أدت الى انتشار المذهب الاباضي تحت ظل الدولة الرستمية هي العوامل نفسها التي أدت الى انتشار المذهب المالكي تحت حكم المرابطين وهي نفسها التي أدت الى

انتشار المذهب الشافعي في مصر أو الحنبلي في الحجاز .

ان انتشار المذاهب الفقهية واعتناق المسلمين لهذا المذهب دون ذاك لا يعود الى افضلية أو صحة هذا عن ذاك بقدر ما يعود الى الظروف السياسية وانحراف الحكام وتجبرهم وتحيزهم الى هذا دون ذاك . وما كان محمد ﷺ ولا الصحابة الراشدون يتمذهبون بمذهب له اسم معين ، وارجو أن لا يفهم من كلامي هذا اني ضد التمذهب ولكني ضد اعتقاد أفضلية هذا على ذاك أو أولويته عليه ، أو الاعتقاد بسنية هذا وخروج ذاك .

وحتى اذا سلمنا جد لا للوزير أو لغيره بانحراف من يراهم منحرفين أو خارجين أو متطرفين أو متعصبين - والقائمة طويلة - اليس من الخير لنا نحن المسلمين في هذه المرحلة الحرجة التي تمر بها امتنا أن نعمل بقوله تعالى : ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى ﴾ .

اليس من الحزم والعزم ان نوجه الجهود الى ما يتهددنا جميعا بصفتنا مسلمين في عقر دارنا ، عرقية تستهدف قرآننا ، وتغريبا عن اصالتنا ، والحادا في ديننا واباحية في سلوكنا ، وشيوعية تقوّض اركاننا ، اليست هذه الاخطار - ونحن نتقيأ نعيم الاستقلال - مما يذهل العاقل ويشيب الولدان ؟ .

لا احسب السيد الوزير الا مقتنعا وموافقا ، ولا احسبني ان طرحت هذه التساؤلات فيها إلاّ مذكرا وان الذكرى تنفع المؤمنين .

الابـاضيـة المذهب والتصور والواقع

حوار صحفي أجرته جريدة (السلام) الجزائرية مع محمد صالح ناصر .

السلام : من هم الإباضية ؟ وهل هم فرقة إسلامية لها مميزات في تصورها العقيدي أم مذهب فقهي بتميز باجتهادات في الأمور التشريعية ؟ .

الابـاضيـة
المذهب والتصور والواقع[1]

الـدكتـور محمـد نـاصر : اود ان اشير قبـل ان اجيب على اسئلتكم الهامة ان اشكر جريدة «الـسلام» الفتيـة التي فتحت صـدرهـا واسعـا امام القـارىء الجزائري واخـذت بيـده الى ابواب من الحوار الهـادىء المتفتـح على الرأي الآخر دون احكام مسبقـة أو انحيـاز لمعسكر في وقت نرى فيه بعض صحفنا العريقـة مـا تزال حتى اليوم سـادرة في غيها باستخدام مقص الرقابة فارضة وصاية تعسفية على الرأي الـذي لا يعجب مـدير تحريرهـا وأوضـح منـذ البـدايـة بـأني أعبر عن رأيي الخاص فيما طرح علي من اسئلة لأني لسـت متخصصا في هذه القضايا وكما اني لا امثل رمزا لطائفة او شيخا لجماعة حتى لاتحمل اجاباتي الى أبعاد لسـت أهلا لايصالها اليها او يفهم منها مفاهيم تنأى عن الطرح العلمي النزيه الى مقاصد سياسية انا ابعد ما اكون عنهـا واسـارع الى قبول الاجـابـة على سـؤالكم الـذي تفضلتم بطرحـه استجـابـة لمـا تجس بـنكن قلبي وفكري وهو ايمـاني العميق بـأنـه لا صلاح ولا فلاح ولا تقدم ولا ازدهار لأمتنا الا في ظل وحدة وطنية راسخة الجـذور على

---

(1)جريدة السـلام العددان : 12/19 و 1990/12/26 .

اسس زكاها وغاها فينا هدي القرآن وتربية محمد ﷺ وهي الاسلام عقيدة وسلوكا ولغة القرآن لسان دين ومعرفة والوحدة الوطنية وسيلة رقي وحضارة ، فأنا اعبر اذا عن احساسي الاسلامي قبل اي اعتبار آخر مهما يكن هذا الاعتبار طائفيا او مذهبيا او سياسيا .

واجابة عن سؤالكم من هم الاباضية ؟ اود ان اقول بان هذا السؤال في حده واسع الاطراف متعدد الجوانب فيه التاريخ والسياسة والفقه والعقيدة ، والثقافة والاجتماع الى غير هذه العوامل التي تتضافر في بناء كل حضارة عريقة لها جذور أصيلة في التاريخ الاسلامي وهذا ليس مجاله هذا الحيز الضيق الذي لا يسمح الا بالاجابة المركزة والفات النظر الى مصادر التوسع والاستيعاب ومع ذلك فاني سأحاول الاقتصار على الخطوط العريضة كما يقال .

ان الاباضية فرقة اسلامية عرفتها الساحة الاسلامية قبل ان تعرف بهذا الاسم لأنها فرقة اسلامية نشأت في ظل الكتاب والسنة اثر ظهور بعض التطورات السياسية التي عرفها التاريخ الاسلامي في عهد الامام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

والاباضية نسبة الى عبد الله بن اباض التميمي أحد الزعماء السياسيين البارزين الذين انشقوا عن الخوارج عندما رأى منهم ما لا يتماشى مع سماحة الاسلام وقد ظهرت هذه التسمية لأول مرة في العصر الاموي ولعل هذا كان في عهد عبد الملك بن مروان الذي كانت له مراسلات تاريخية معروفة مع عبد الله ابن اباض أما التسمية التي أطلقها الاباضية على أنفسهم فهي «أهل الدعوة» ايمانا منهم بأن الاسلام رسالة ودعوة لا تتوقف وقد اشتهر ابن اباض بمعارضته الشديدة للسياسة الجائرة التي كان الامويون يتسلطون بها

على رقاب المسلمين كما عرف أيضا بمواقفه الحازمة ضد الخوارج حيث كان يجادلهم ويبين تطرفهم ويتبرأ من أعمالهم كما تشهد بذلك النصوص التاريخية مما يوضح لكل منصف نزيه انقطاع كل صلة بين مبادىء الخوارج المتطرفين وبين مبادىء الاباضية .

أما الامام الحقيقي للاباضية فهو جابر بن زيد الأزدي المولود سنة (22 هـ) والمتوفي سنة (93 هـ) على ارجح الأقوال وبهذا يكون الذين ينتسبون اليه ويأخذون علمهم ودينهم عن طريقة أول المذاهب الاسلامية نشوء والإمام جابر تابعي من أفاضل التابعين ومشاهيرهم أخذ العلم عن كبار صحابة رسول الله ﷺ ويكفي تتلمذه المباشر لام المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعبد الله بن عباس بحر الامة وفقيهها بشهادة رسول الله .

السلام : وعن الشق الثاني من السؤال : أللإباضية تصورات مميزة في العقيدة ام هم مذهب فقهي يتميز باجتهادات في الامور التشريعية ؟ .

الدكتور محمد ناصر : لا تختلف الاباضية عن الفرق الاسلامية المعتدلة الأخرى إذ هم يستقون كل تصوراتهم العقيدية واجتهاداتهم التشريعية من الأصول التي تعتمد في التشريع الاسلامي الكتاب السنة والاجماع والقياس والاستدلال ويدخل تحت الاستدلال الاستصحاب والاستحسان والمصالح المرسلة وقد يطلقون على الاجماع والقياس والاستدلال كلمة (الرأي) فيقولون عندما يتحدثون عن مصادر التشريع هي الكتاب والسنة والرأي اختصارا وبسبب ذلك اخطأ بعض من كتب عنهم فظن أنهم ينكرون الإجماع .

والأصل العام في العقيدة الاسمية عند الاباضية هو التنزيه

المطلق للباري جلا وعلا ، وكل ما أوهم بالتشبيه من الآيات القرآنية الكريمة أو الأحاديث النبوية الثابتة يجب تأويله بما يناسب قوله تعالىٰ ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع العليم﴾ .

1) الايمان : عقيدة وقول وعمل .

2) صفات الباري جل وعلا ذاتية ليست زائدة على الذات ولا قائمة بها ولا حالة فيها .

3) الله تبارك وتعالى صادق في وعده ووعيده .

4) الخلود في الجنة أو النار أبدي .

5) انكار رأي قسم من أقسام كلمة التوحيد الثلاث شرك .

6) انكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة شرك .

7) القرآن كلام الله تعالى وانكار شيء منه شرك .

8) الميزان والصراط ليسا حسبيين وانما يؤولان بما يليق بهما من ترغيب أو ترهيب.

9) الانسان حر في اختياره مكتسب لعمله ليس مجبراً ولا خالقاً لفعله .

10) ولاية المطيع والبراءة من العاصي واجبتان .

11) الناس قسمان مؤمن وكافر ولا منزلة بين المنزلتين .

12) الامر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان .

13) إذا أطلقت كلمة الكفر على الموحد فالمراد بها كفر النعمة لا كفر الشرك استناداً إلى الآية الكريمة ﴿فمن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ وفي آية ﴿أولئك هم الفاسقون . .﴾ وفي آية ﴿أولئك هم الظالمون﴾ ، فالتعبير بالفاسق أو الكافر أو الظالم حكم واحد ، والاختلاف لفظي .

وهناك أصول أخرى هامة ليس هنا محل ذكرها يمكن مراجعتها في مصادر الاباضية وهي كلها أصول لها أدلتها النقلية والعقلية من القرآن والسنة واحسبها لا تختلف عن عقيدة المذاهب الاسلامية المعتدلة الأخرى الا في بعض الأمور مثل الحكم على مرتكب الكبيرة الميت مصرا على المعصية بالخلود في النار أو اعتقادهم بعدم رؤية الباري جل وعلا تنزيها وخوفا من ان يجر الاعتقاد الى التجسيد والتشبيه تعالى الله عن ذلك كما نلحظ أن حرصهم على الاعتقاد بأن الميت بغير توبة مخلد في النار له أثار إيجابية عملية في سلوكهم اليومي إذ يجعل المسلم حذرا محاسبا نفسه على كل صغيرة وكبيرة مسارعا الى التوبة والانابة والاستغفار والرجوع الى الجادة كلما زلت به قدمه، وحبذا لو ندرس هذه الأصول العقيدية من خلال السلوك الحضاري للمجتمعات ولا يقتصر ذلك على التنظير الفلسفي العقلي المجرد نضرب مثلا بدراسة المفكر الجزائري المرحوم مالك بن نبي في مقالة القيم الذي درس فيه أثر عقيدة الإباضية بالولاية والبراءة وانعكاسات ذلك على المجتمع الاباضي الميزابي من خلال زيارة قام بها الى وادي ميزاب سنة 968، فقد تكون مثل هذه الدراسات الميدانية من عوامل الاعتراف بالحق وأخذ الحكمة حيثما وجدت دون تعصب لرأي متزمت، أو انسياق وراء احكام مسبقة، أو استيراد نظريات من هذه الدولة أو تلك، واعتقد أن من أهم الأصول العقيدية للإباضية التي يتشددون في تطبيقها وتتجلى في حياتهم التطبيقية إيمانهم بأن الاسلام عقيدة وقول وعمل . ولا يمكن الفصل بين هذه العناصر الثلاثة فلا عقيدة بدون سلوك ولا سلوك بدون عقيدة ومن هنا نفهم حرصهم الشديد إلى يومنا هذا على تطبيق مبدأ الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يقوم به رجال الدين أو حلقة العزابة كما يطلق عليهم في وادي ميزاب وهم الساهرون على تطبيق مبدأ الولاية والبراة في الحقيقة تجسيداً لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بطرق عملية رادعة فالولاية للمطيع والبراءة من العاصي المجاهر للمعصية.فالفرد في المجتمع الميزابي الإباضي عندما يقوم بأمر يوجب براءة المسلمين يعلن عنه أمام الملأ في المسجد الجامع حتى يعرفه الناس فلا يتعاملون معه وهو ما يضطره إلى الاعتراف بالخطأ والتوبة من الذنب والرجوع إلى جادة الحق في ظل الشريعة الاسلامية واعتقدأن هذه المبادىء المستمدة من القرآن والسنة هي التي يرجع اليها فيما يلحظ من تماسك وتضامن واتحاد بين أفراد المجتمع الاباضي على قاعدة الفرد من أجل المجموع ، والمجموع من أجل الفرد .

كما يكون الاباضية أيضا في مجال التشريع مدرسة راسخة الجذور تتمثل في اجتهادات علمائهم القدامى والمحدثين في مواكبة الحضارة الاسلامية في تطورها مع الواقع المعيش يكفي أن نذكر ديوان جابر بن زيد في الفقه وقد تحدثت الكتب القديمة عن أهميته وضخامته ولكنه ضاع في العهد العباسي ،ومسند الإمام الربيع بن حبيب في الحديث وهو يعد أول كتب الحديث قربا من الرسول في اسناده الثلاثي عن جابر عن عائشة عن الرسول ﷺ ومدونة أبي غانم بن بشر في الحديث والآثار وهي تعود الى القرن الثاني الهجري وتفسير هود بن محكم الهواري الأوراسي في القرن الثالث، وقد عرف المذهب الإباضي في ميدان الفقه بمطولات التي قد يقل نظيرها عند المذاهب الأخرى نضرب مثلاً بقاموس الشريعة للعلامة جميل بن

خميس السعدي في تسعين جزءا وبيان الشرع الذي يبلغ سبعين جزءا للعلامة محمد بن ابراهيم الكندي والمصنف لابي بكر احمد بن عبد الله الكندي وجواهر الاثار لمحمد بن عبد الله بن عبيدان ومعارج الآمال للعلامة نور الدين عبد الله السالمي وهؤلاء كلهم من اباضية عمان كما اشتهرت عند اباضية المغرب آثار فقهية أخرى مثل إيضاح الشماخي ومؤلفات أحمد بن عبد الله ابن بكر ومن أهمها أصول الأراضين الذي ما زيال مخطوطاً ومؤلفات الشيخ اسماعيل الجيطالي ومن المحدثين نذكر النيل للشيخ عبد العزيز التيني وشرح النيل لقطب الأئمة الشيخ محمد بن يوسف أطفيش وهذا الكتاب موسوعة فقهية هامة تعتبر المرجع الاساسي للفقه عند الإباضية، ناهيك عن مؤلفاته الاخرى التي تجاوزت في ميدان الفقه وحده المائة ومن المعاصرين اعلام ضربوا في ميدان الاجتهاد الفقهي بسهم وافر يأتي على رأسهم العلامة الامام الشيخ بيوض والشيخ أحمد الخليلي مفتي سلطنة عمان وهما امتداد لعلماء الاباضية الذين عرفوا بالاجتهاد في كل عصر ومصر لإيجاد الحلول التي تشغل بال المسلمين يوميا وقد كانت اجتهادات علماء الاباضية محل اعجاب وتقدير العلماء المسلمين من المذاهب الأخرى ولها مكانتها في الموسوعات الفقية المعاصرة مثل موسوعة الفقه الإسلامي الصادرة بالقاهرة، ولم تتوقف حركة التأليف عند الإباضية رغم ما يتعرضون له من الملاحقة والاضطهاد في مراحلهم التاريخية ولو قام باحث كما يقول الشيخ على يحي معمر باحصاء جميع الكتب التي ألفها الإباضية واستخرج منها نسبتها المائوية إلى عددهم ثم فعل ذلك في بقية المذاهب ثم قارن بين نسب جميع لوجد نسبة الاباضية من أعلى النسب . هذا على الرغم من أن

كتبهم عرفت المطاردة والمصادرة .والاحراق والاتلاف، مثلما وقع عند استيلاء الفاطميين على مدينة تاهرت ، وفي أحيان كثيرة تكون أصابع الفقهاء المتعصبين وراء أجهزة السلطة الجائرة تحركها لإلحاق الأذى بمخالفيهم .

للسلام : من هم أئمة الاباضية واشهر علمائهم ؟

يصعب على المرء أن يحدد او يعدد ائمة مذهب ما في حيز ضيق كهذا وانما هذا مجاله الموسوعات والمعاجم المتخصصة ولعل الله يوفق (جمعية التراث) الى انجاز عمل قيم شرعت في جمع مادته تحت عنوان معجم اعلام الاباضية على غرار المعاجم الاسلامية المعروفة وبذلك تسد فراغا هائلا في هذا المجال، ومع ذلك فاني سأورد هنا بعض الاعلام على سبيل المثال لا الحصر وقد سبقت الاشارة الى بعضهم الامام جابر بن زيد (ت 93 هـ) وهو التابعي الذي شهد له شيخه الصحابي الجليل عبد الله بن عباس بالعلم واعتزت ام المؤمنين ببنوته العلمية، الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة شيخ حملة العلم الى المشرق والمغرب، الإمام الربيع بن حبيب صاحب المسند ومرجع الاباضية في الحديث الى جانب الصحاح بطبيعة الحال، الإمام عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية أول جمهورية اسلامية تطبق نظام الشورى الاسلامية تطبيقاً عملياً، الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن، الإمام أفلح بن عبد الوهاب، أبو يعقوب يوسف الورجلاني صاحب المؤلفات الفلسفية القيمة وخريج جوامع الاندلس أبو عمار عبد الكافي، أبو عبد الله محمد بن بكر مؤسس نظام الحلقة في الخامس الهجري هذا النظام الذي ما يزال في وادي ميزاب نموذجاً فريداً في العالم الإسلامي لرسالة المسجد في حياة

المسلمين اليومية نظرياً وتطبيقاً، ونذكر من بين المعاصرين الشيخ عبد العزيز التميمي وقطب الأئمة محمد بن يوسف أطفيش صاحب المؤلفات الكثيرة والذي طبقت شهرته العالم الإسلامي كله المعروف بمواقفه الوطنية من الاحتلال الفرنسي، نور الدين عبد الله السالمي أشهر علماء عمان وهو صاحب المؤلفات القيمة والمواقف المشرفة، الشيخ أبو اليقظان أحد رواد الصحافة الوطنية الجزائرية ومن أشهر المجاهدين بالكلمة ضد الغزو الصليبي، الشيخ ابراهيم بيوض رائد الحركة الاصلاحية ومجدد الفكر الاباضي في القرن العشرين الشيخ ابراهيم اطفيش صوت الجزائر في المنافي. تونس والقاهرة ورجل الوطنية الاسلامية التي لا تعرف الحدود الاقليمية، الشيخ عبد الرحمن بكلي صاحب المؤلفات في التاريخ والفقه، الشيخ محمد علي ديوز مؤرخ المغرب الكبير، وهؤلاء انتقلوا جميعاً إلى رحمة الله ورجال ما زالوا يؤدون واجبهم الإسلامي اليومي هنا وهناك آمد الله في أنفاسهم وفي انفاس كل مسلم يسعى إلى تحقيق الوحدة والآخاء بين المسلمين أينما كانوا.

لماذا انحسر المذهب الاباضي في اماكن محدودة جدا من العالم الاسلامي ؟

انتشر المذهب الاباضي في اماكن عديدة من العالم الاسلامي المترامي الأطراف. وقد كان الاباضية رجال دعوة وجهاد لاعلاء كلمة الحق اينما كانوا، فكانوا في الحجاز، وفي حضر موت، وفي اليمن، وفي عمان وفي خراسان كما وجدوا في جنوب مصر وليبيا وتونس والجزائر وجنوب المغرب الأقصى. ووصلوا الى حدود نهر النيجر وهم أول من أوصل الاسلام الى القارة السوداء وقد تعرفنا

في السنوات الاخيرة من خلال بعض الطلاب الغينيين في الاردن على وجود جماعة كبيرة تعد بالآلاف ممن ينتمون إلى المذهب الإباضي في غينيا وامتد الى زنجبار وهو موجود فيها إلى اليوم وتدل بعض الاثار المكتشفة والمخطوطات الى وصول المذهب بواسطة التجار الى ابعد ذلك شرقا بكثير .

ولكن ما تعرضت له الاباضية من ملاحقة واضطهاد عبر تاريخهم الطويل عرضهم للابادة والتشتت من طرف الحكام الجورة الذين كانوا يرون في مبادىء هذا المذهب ما لا يسمح لهم بالسيطرة والتسلط والنفوذ، نذكر على سبيل المثال المذبحة الفظيعة التي تعرض لها المسلمون من السفاح الشيوعي (نيريري) في زنجبار مؤخرا .

كما يعود انحسارهم في اماكن عديدة من العالم الاسلامي الى ان المذاهب المنافسة كانت تعتمد على السلطة السياسية الغالبة في بسط نفوذها كما وقع ذلك في تاريخ المغرب الكبير وما الفتن التي نسمع عنها من حين الى آخر هنا وهناك الا صورة مصغرة لتلك المعاناة وذلك الاضطهاد .

وهناك سبب آخر ذكره الشيخ علي يحي معمر في كتابه : «الاباضية بين الفرق الاسلامية» يعود الى كراهة الاباضية لاراقة الدماء وهروبهم من الفتن مما جرأ عليهم مخالفيهم فشددوا عليهم الهجوم ولاحقوهم باستمرار ، واستحلوا منهم ما لم يستحلوا من غيرهم ، فكان ذلك كله سببا في تناقص عددهم وانحسارهم الى أماكن محدودة، فمن المعروف ان الاباضية يعتمدون على الدعوة والاقناع ولا يلجأون إلى استعمال العنف الا في حالات الدفاع .

ولذلك لم يشتركوا في أي عمل من أعمال العنف التي قام بها الخوارج ، والشيعة ، والتوابون، وابن الزبير، والاشعث ، ضد الامويين رغم مخالفتهم ومعارضتهم الشديدة للحكم الاموي وعدم رضائهم به، وقد حاول الخوارج استدراج عبد الله بن اباض للخروج معهم فامتنع واخبرهم أنه لا يخرج على قوم يرتفع الآذان من صوامعهم ، والقرآن من مساجدهم . ولهم في هذا المجال اصولهم السياسية التي تنظر الى الحكم والحكام من خلال نظرة القرآن اليها وهي مطروحة بالتفصيل والتعليل والتمثيل في مصادرهم المتخصصة لمن شاء العودة اليها .

والواقع اننا نرى كثيرا من الجماعات الاسلامية بدءا من الاخوان المسلمين والشهيد سيد قطب تتبنى مبادئهم تلك وتتدارسها وان لم يصرحوا بذلك علانية ، ولا جناح في ذلك ما دام المصدر والحمد لله واحدا وهو القرآن والسنة .

السلام : كيف ينظر الاباضية الى المذاهب الأربعة ؟

هم ينظرون اليها كما تنظر المذاهب الأربعة الى بعضها البعض ، نظرة اخاء وود واحترام وتقدير . انطلاقا من مبدأ ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾. وكل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه ، ومثل المسلمين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى . وغير هذا من احكام الله واقوال رسول الله .

ولا احسبني مبالغا ان قلت من سمات المذهب الاباضي ومميزاته التسامح مع المذاهب الاربعة ، فنحن عندما نعود الى مؤلفات الاباضية قديما وحديثا ، نجدهم يوردون عند مناقشة

المسائل الفقهية - اقوال مخالفيهم في المذهب والرأي دون تعصب او تزمت ولن تذهب للتدليل على ذلك بعيدا في التاريخ ، وانما نعود الى ما يعتبر اليوم أهم معتمد للاباضية ولا سيا المغاربة في الفقه وهو (شرح النيلّ) الذي ألف متنه الشيخ عبد العزيز الثيني على غرار مختصر خليل ، وشرحه الشيخ اطفيش محمد بن يوسف ، ففي هذا الشرح تتجلى الروح الإسلامية المتسامحة في انصع صورها . فهو يورد اقوال العلماء المسلمين دون تحيز او انغلاق عند مناقشة اية مسألة ثم يورد رأيه الذي يراه راجحا . وهذه طريقة الشيخ اطفيش في اغلب مؤلفاته الفقهية . وللاخ المسلم ان يدخل أية مكتبة اباضية شاء عامة أو خاصة . فانه قد يجد فيها من مصادر المذاهب المخالفة اكثر مما يجده من مصادر المذهب الاباضي . ويمكننا ان نلمس هذه النظرة الافقية الواسعة في كل ما يكتبه الاباضية ولا أدل على ذلك من صحافة ابي اليقظان ، ومؤلفات ابراهيم اطفيش ومحمد علي دبوز وعلي يحي معمر ، وعبد الرحمن ملكي ، وفتاوى الشيخ بيوض وتفسيره الكامل للقرآن الكريم . وفي ادب مفدي زكريا ، وصالح خرفي ، وغيرهم . بينما لا نجد العكس فقلما نجد في مؤلفات غير الاباضية اهتاما بعلمائهم او ذكرا لادبائهم ومفكريهم وزعمائهم ، وهذه ظاهرة غير حضارية ينبغي ان تزول من بعض الرؤوس ولا سيا اذا كانت اكاديمية يفترض فيها الموضوعية والإخلاص للعلم وحده .

السلام : في نظركم ، ما هو الطرح الفكري الذي يعمل على تخفيف حدة التعصب للمذهب ، وعدم تقبل الاجتهاد المخالف ؟

الجواب : ان الطرح المبني على اساس التمذهب والانغلاق في حيزه دون فتح نوافذ التهوية طرح يبدأ بالقضاء على صاحبه نفسه وان الانتماء للمذهب الى حد اباحة العداء والاعتداء انتماء غير متحضر بل هو غير اسلامي على الاطلاق ، لانه مضاد لنص قطعي وهو قوله تعالى : ﴿**إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين اخويكم**﴾ . وقوله : ﴿**انا جعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ ،وقال الرسول الكريم «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» هذه الدعوات النيرة المشعة بنور الحب والتوادد هي أول ما يساعد على تخفيف حدة الخلاف والتعصب المذهبي او الحزبي او العرقي او الطائفي وما أشبهه ، كيف يبيح المسلمون لانفسهم ان يتقاتلوا ويتصارعوا واحيانا يكون ذلك في بيوت الله – من أجل اغراض دنيوية او خلافات فرعية هي في اصلها ان احسنا النظر اليها دليل ثراء وغنى الفكر الاسلامي المعروف بالتسامح والرحابة والاحترام .

ان المرء عندما يعود بذاكرته الى المراحل التي مر بها التاريخ الاسلامي يلحظ – بعد عملية استقراء بسيطة – أن الفتن المتأججة بين المسلمين كان من ورائها دوما أسباب دنيوية مثل الصراع من اجل الحكم والتسلط والزعامة ، والرئاسة ، وما أشبهه من نزعات الشيطان ونزغاته ، وحتى لا ادخل في متاهات الفتن والاحداث القريبة او البعيدة اقول ان السياسة التي قيل عنها : «ما دخلت شيئا الا وأفسدته» لم تفسد على المسلمين دنياهم فقط ، وانما افسدت عليهم دينهم أيضا ، نسأل الله العصمة والنجاة .

ولن نخفف من هذه المواقف غير الاسلامية الا بالعلم

والاعتصام باخلاق القرآن ، فلو اعتصمنا بالهدى الرباني طبقناه في حياتنا اليومية لابتعادنا عن هذه الفتن العمياء التي علمنا القرآن أن نقول عنها ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ وأحسب أن دور العلماء والمفكرين يأتي في قمة هذا الهرم من العمل الرسالي الاسلامي ، يتجسد عمليا بعقد الندوات الفكرية للمتخصصين هنا وهناك من وطننا وتتوسع لتشمل كل الجماعات الاسلامية في بقايا العالم الاسلامي بعيدا عن هرطقات السياسة ، والا عيب الزعامة والسياسة ولترفع عن حشد البسطاء والعامة من الناس في مثل هذه القضايا الحساسة التي لا يعرف اسرارها وطرق معالجتها الا الراسخون في العلم وهم يصلون الى حلها بالمدارسة والحوار العلمي الهادىء وعسى ان تجد هذه الدعوة آذانا صاغية فتعيد الينا امجاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

وللمسجد دور بارز وهام في هذا العمل الاسلامي ، يقوم به الائمة والدعاة والوعاظ والمرشدون بالتركيز على القضايا التي تجمع المسلمين دون التطرق الى اثارة الاحن التاريخية أو القضايا الخلافية التي قد تستعصي على فهم العامة من الناس ، لأن الذي يحضر الى المسجد ليس هو الذي يحضر الى ندوة علمية أو محاضرة في ناد ومعهد وجامعة ، وقد رأينا في المدة الأخيرة ان كثيرا من الفتن والصراعات كان المتسببون في ايقاد نارها وعاظ اتخذوا من المنابر منابز ومن المساجد مواقد نذكر على سبيل المثال احداث بريان ، واحداث الجلفة واحداث المدية . وتلمسان وغيرها مما يعصر القلب الما والفكر حيرة وتشتتا .

وللجامعة دور لا يقل عن الجامع ، فان الاستاذ الذي يتطرق الى هذه القضايا ينبغي ان يكون شاعرا بالمسؤولية الخطيرة الملقاة على عاتقه وتقديره لأمانة انشاء جيل مسلم يوحد ولا يفرق ، يبني ولا يهدم ، يتطلع الى المستقبل ولا ينغلق على الماضي ، ولتتسع نظرتنا لتشمل الفكر الاسلامي في كل مراحله دون خوف او تعصب فان المناهج الدراسية عندنا ما تزال تعاني من نظرة متخلفة متعصبة ، ولا سيما في بعض المعاهد والجامعات المتخصصة في الدراسات الاسلامية وحتى لا يكون كلامي عائما اقول لماذا لا يدرس المذهب الاباضي الى جانب المذاهب الاسلامية الاخرى وقد مضى على الاستقلال قرابة ثلاثين سنة ؟ الى متى تبقى الاسئلة التي توجه الى الطلاب في الامتحانات الكتابية او الشفوية ضحية انتماء الاساتذة لهذا المذهب او ذاك او هذا التيار او ذاك . الا يستدعي هذا اعادة النظر في برامج الجامعة ورسالتها واهدافها ؟

ودور الاعلام في هذه الرسالة أشد خطراً من كل ما أسلفت لأن الاعلام المرئي والمقروء ، ولا سيما التلفزيون سلاح ذو حدين ينفع ويضر حسب الاستعمال ، ولا بد من القول ان عهد الديمقراطية والحمد لله قد فتح مجال الصحافة على مصراعيه ليعبر اصحاب الافكار عن افكارهم دون خوف من ضغط او رقابة ، فما ينبغي القول ان عهد الصحوة الاسلامية المباركة سمح لظهور العديد من المؤلفات التي اخذت تسعى الى تقريب شقة الخلافات بين المسلمين ، ومادمنا في صدد الحديث عن الاباضية فلا بأس من ان اشير الى

ان المذهب الاباضي أخذ يعرف اهتماما ملحوظا من طرف كتاب اعلام جامعيين في كل من مصر وسوريا ، والعراق، والأردن، وتونس ، وقد ساعد على ذلك التسامح الذي تعرفه بعض الجامعات العربية فنوقشت رسائل هامة في نواحي الفكر الاباضي ، اضافة الى ما يناقش من أطروحات في الجامعات الغربية وهي كثيرة ومتنوعة ، لعلنا سنعود الى هذا الجانب من الموضوع في فرصة أخرى ان شاء الله .

واتماما للفائدة اورد هنا بعض المصادر المتخصصة لدراسة هذا الفكر اذكر منها :

- الاباضية في كوكب التاريخ علي يحي معمر .
- الاباضية بين الفرق الاسلامية .
- نشأة الحركة الاباضية د/عوض خليفات الاردني .
- النظم الادارية والتربوية عند الاباضية .
- فتاوي الامام الشيخ بيوض (جزآن) .
- فتاوي للشيخ عبد الرحمن باكلي البكري.
- دراسة في الفكر الاباضي للدكتور السينغالي عمر با .
- الحق الدامغ للشيخ احمد بن حمد الخليلي .
- فقه الامام جابر للاستاذ يحي بكوش. والإشارة هنا الى بعض الكتب الموجودة بالمكتبات الجزائرية وهي كلها معاصرة لان المصادر القديمة كثيرة ومتنوعة وليس هنا مجال الحديث عنها .

السلام : هل لكم كلمة اخيرة توجهونها للضمير الاسلامي ؟

ج :كلمة أخيرة أقولها: ما أحوجنا اليوم إلى أن ينصب اهتمامنا على ما يهمنا كأمة اسلامية تجاه اعداء الاسلام فهم يجتمعون على الباطل ونحن نفترق على الحق .

وعلى المسلمين في كل اطراف العالم الاسلامي ان يدركوا بعمق ان المسلمين معرضون اليوم اكثر من أي وقت مضى لحملة صليبية مسعورة تستهدف كل قيمهم ، وتستخدم في سبيل ذلك كل الوسائل الخصبة والعلنية ، المشروعة والمحرمة ، وليس لهم والله من ملجأ الا الاعتصام بالقرآن الكريم وسنة الرسول ، والتعاون على البر والتقوى فان هم تشتتوا احزابا ، وضاعوا تمذهبا ، وانقسموا حكماً وحكاماً فإنهم مايزالون في تخلف وتقهقر ، واستلاب ، وستضيع منهم الأرض كما أهين منهم العرض ، وسيساقون سياسياً ، كما يستعمرون اقتصادياً . ولله الأمر من قبل ومن بعد .

فهـرس الكتاب

10 مكانة الإباضية بين الفرق الإسلامية بقلم : الشيخ علي يحي معمر 3

11 الإباضية في الميدان بقلم : الأستاذ عبدالعزيز المجذوب 23

12 هل الإباضية خوارج ؟ بقلم الأستاذ عمر بن الحاج صالح با 35

13 الأصول التاريخية للفرقة الإباضية بقلم : الدكتور عوض خليفات 57

14 في ضيافة ميزاب بقلم : الأستاذ مالك بن نبى..... 101

15 براءة الإباضية بقلم : الأستاذ فهمي هويدي 111

16 رسالة مفتوحة إلى وزير الشؤون الدينية السابق بقلم : الدكتور محمد صالح ناصر 137

17 الإباضية : المذهب والواقع ، والتصور ، بقلم : الدكتور محمد صالح ناصر 143

رقم الإيداع

٩٢/١١٥م

مطبعة الألوان العصرية : ٥٦٢٢٧٦